روايات الهلال

الوحش الآدمى

إميل زولا





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر إبريل 2020 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٨٠ ـ اغسطس ١٩٨٠ ـ شوال ١٤٠٠
No. 380 — Août 1980

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٣٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »





روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركي

الوحش الآدمى

بقلم

إميـــل زولا

دار الهـلال

مؤلف الرواية

الفاقة مدرسة النبوغ !

قول لا يصدق على انسان أكثر مما يصدق على الكاتب الالمعى أميل زولا .. فقد اصطلحت عليه في طفولته وصدر شبابه ألوان شتى من الصعاب ، والحرمان ، والفشل .

ولد اميل زولا فى باريس سنة ١٨٤٠ لأب مهندس ايطالى الأصل ، بارع الفن ، عاثر الحظ ، قليل المال ، ولد بأنف أفطس ، وملامح بعيدة عن الجمال .. ولسان ناقص لا يحسن نطق الزاى ، فكان الصبيان فى المدرسة يتندرون بسؤاله عن اسمه فيقول « ثولا » فيضجون بالضحك ! ويجرى خلفهم ليضربهم ، فيضربونه ضربا مبرحا !

ومات أبوه وهو طفل ، فاضطرت أمه الشجاعة أن تحترف غسل الثياب ، والخدمة فى البيوت ، لتعوله وتيسر له الدراسة .. بيد انه كان تلميذا متخلفا ، مشغوفا بتأليف الشعر ، فازدانت شهادته بأكثر من صفر ، منها صفر رنان فى مادة الأدب الفرنسى بالذات ، لأنه كان يهمل النصوص المقررة ، وينكب على قراءة الكتب الخارجية من مؤلفات معبوديه « هيجو » و « الفريد دى موسيه » ومن اليهما .

ولم يكن هناك من مناص من أن يهجر مقاعد الدرس ، ليبحث عن عمل .. فعطف عليه بعض ذوى المرءوة وعينوه كاتب حسابات فى بعض المحلات الكبرى .. فكان يقضى النهار وبعض الليل فى عد الأرقام ليقبض مرتبا يقتات منه وامه قوت الكفاف .. بيد أن روحه الشاعرة ضاقت بذلك العمل ، فتحدى الجوع فى باريس ،

تاركا هذا العمل البغيض .. الى أن قيض الله من توسط له عند صاحب احدى المكتبات الكبرى فعينه بائعا .. فكان ابلد الباعة فى البيع ، وأمهرهم فى اختلاس النظـــر الى باطن الكتب ، ثم يكتب تعليقات ونقدا سريعا لها فى دفتر مذكراته .. الى أن ضبطه صاحب الدار ، وكاد يفصله لولا انه وجد فى تلك التعليقات براعة ادبية والمعية ، فرقاه محررا للاعلانات .

وفى هذه الوظيفة وجد الطريق الى معبوده : القلم .. ولو لكتابة الاعلانات عن الكتب . ولكنها كتابة على كل حال ، وعن الـكتب بالذات فأشرقت نفسه بالأمل ، وصار يخالس رب العمل ، ويدبج قصصا قصارا ، نشرها فيما بعد باسم « أقصوصات الى نينون » .. فكانت الخطوة الأولى نحو المجد السابع ، الذى تألقت فيه درره اللوامع : « نانا » و « البيت المتداعى » و « الوحش الآدمى » .

ويعد « أميل زولا » أمام المدرسة الطبيعية فى الأدب ، وامام المدافعين عن العدالة بالقلم .

وهو يمتاز بدقة تحليل العواطف ، وحبكة الموضوع ، وصدق وصف البيئة الاجتماعية والتيارات النفسية المتناقضة . على أن شهرته تجاوزت عالم الأدب الى عالم الســـياسة ، فهو صاحب مقالات « انى اتهم » المشهورة ، التى أقامت فرنسا وأقعدتها ، وزلزلت فيها وزارة الحربية وقيادة الجيش ، اذ اتهم المسئولين فيهما بالتواطؤ على الحكم بالخيـــانة ظلما على ضابط برىء هو « دريفوس » .

وحوكم « زولا » بسبب هذه المقالات ، فدافع عن موقفه ، وعن حرية القلم دفاعا خالدا .. وترتب على هذه الحملة الأدبية الصحفية أن اعيدت محاكمة « دريفوس » واعلنت براءته . وانحنت الدنيا كلها اعجابا بزولا ، بطل الحرية الفكرية الجرىء .

وكان هذا الأديب العبقرى غزير الانتاج ، مشـــهورا بانه لا يعرف

فى الدنيا غير لذتين : الكتابة ، والأكل ! . فكان يخرج مع زوجته كل يوم الى السوق ، لينتقى الطيور بنفسه ، ويشتريها بعد أن يتأكد من انها سمينة ! ثم يهتم بالأصناف التى يجب ان تقدم له ، ويأكل منها بافراط !

وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٢ ، اشعل مدفأته وجلس الى مكتبه وتناول قلمه ليسهر الليل فى تدبيج المقالات والقصص .. فوجدوه فى الصباح مختنقا بغاز المدفأة !

شخصيات الرواية

روبو : Roubaud معاون محطة الهافر . رجل متين البنية ، امين في عمله ، متزوج من سيفيرين .

سيفيرين : Séverine : حسناء . ابنة بستاني في قصر قاض عجوز ثرى . مات والداها فكفلها ورباها مع ابنته الى أن تخرجت معها من المدرسة ثم أمهرها وزوجها .

جرانموران : Grand morin القاضي العجوز الثرى ، وعضو مجلس ادارة شركة السكك الحديدية التي يعمل فيها روبو ، وله قصر ريفي اسمه موفراس .

جاك لانتييه : J. Lantier : مهندس سائق قاطرة ، شاب ، وسيم ، به شذوذ نفساني خفي من نوع خاص .

الام فيكتوار : La mère Victoire : حاضنة سيفيرين السابقة . امرأة عجوز تشرف على استراحة الدرجة الأولى بمحطة باريس ، متزوجة من بيكيه .

بيكيه : Pecqueux : وقاد القاطرة التي يقودها جاك . وهو عربيد سكير وزير نساء ، وزوجته تعلم ولكنها تدلله وتدعه على هواه .

دنيزيه : Denizet قاضي التحقيق بمدينة روان . طموح ، محدود التفكير .

كابوش : Cabuche : حجار عملاق ، غبي ، بسيط القلب ، يعيش منفردا في الغابة

مينار : Minard : عامل التحويلة قرب ضيعة موفراس ، وزوج فازى Phasie عمة جاك التي كفلته بعد وفاة أمه . ولها ابنة اسمها فلور

الزواج السعيد

ما كاد « روبو » يدخل الحجرة حتى وضع فوق المائدة رغيفا كبيرا من الخبز وفطيرة باللحم وزجاجة من النبيذ . وطاب له الدفء الذى يشيع فى الحجرة ، فشكر للأم « فيكتوار » عنايتها بالتدفئة قبل أن تخرج الى عملها فى الصباح ، ثم اتجه الى النافذة ففتحها كى يدخل الهواء النقى منها ، ثم أطل على أفنية السكة الحديدية المترامية تحت بصره . فقد كان ذلك البناء مما اعدته شركة سكة حديد الغرب لموظفيها فى أوقات راحاتهم ولمبيتهم بين نوبات العمل حين يطوح بهم بعيدا من ديارهم . وكانت هذه الحجرة فى الطابق الأعلى من الدار ، وهو الطابق السادس .

وأخذ « روبو » يتأمل ذلك المنظر ويقارن بينه وبين منظر محطة « الهافر » التى يعمل معاونا فيها . وكان من عادته كلما حضر لقضاء يوم فى باريس أن ينزل فى حجرة الأم فيكتوار هذه ، لأنه كان يألف القطارات ويستريح الى ضجتها وحركتها ودخانها الأبيض الذى ينبعث من مراجلها !

وفيما كان يهم بمغادرة النافذة ناداه صوت من أسفل باسمه فحدق ورأى فى شرفة بالطابق الخامس السائق « هنرى دوفرنى » وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، ويقطن ذلك الطابق مع والده مفتش الخط الرئيسى ، وشقيقتيه الشقراوين : « كلير » التى لم تجاوز الثامنة عشرة من عمرها ، و « صوفى » التى بلغت العشرين . وهما فتاتان لا تكفان عن الضحك والغناء ، يصاحبهما فى الصياح والطرب عصفور الكنار الذى تربيانه فى قفص ، ومعزف عتيق . وانه ليسمع الآن ضحكة صوفى ، وغناء كلير ، كما يسمع زقزقة العصفور . ثم قال له السائق الشاب :

ـ هل حضرت الى المدينة بسبب مشاجرتك مع وكيل المحافظ ؟

ـ نعم ، وحضرت فى القطار السريع الذى غادر الهافر فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين . وقد أنبنى مدير قسم الركاب ، واحمد الله على اننى لم افصل !

ـ وزوجتك هل حضرت معك ؟

ـ حضرت لتشترى بعض ما يلزم لها ، وأنا الآن فى انتظار عودتها . واحمد الله على أن الأم فيكتوار المشرفة على قاعات الانتظار فى المحطة تتكرم علينا بمفتاح حجرتها هذه كلما حضرنا فنطبخ فيها ونأكل ونستريح فى بحبوبة وها قد قاربت الساعة الثالثة ولم تحضر سيفيرين والجوع يكاد يقتلنى . ولست أدرى ماذا عاقها ؟!

ـ وهل تعتزمان قضاء الليلة هنا ؟

ـ كلا ! . بل سنعود الى الهافر بقطار السادسة والنصف السريع !

وزادت الضجة الصادرة من مسكن آل « دوفرنى » . ويبدو أن الشقيقتين الشقراوين أخذتا تعزفان على البيانو فى وقت واحد وارتفع صياحهما المرح ، فانتقلت العدوى الى شقيقهما ولوح بيده محييا « روبو » ثم دخل من الشرفة ليلحق بهما !

والقى « روبو » نظرة أخيرة على الطريق ، ثم دخل فنظر الى ساعة الحائط وبدت على وجهه امارات الخيبة عندما وجد عقربيها يشيران الى الثالثة والثلث . وساءل نفسه : « ترى لماذا تأخرت سيفيرين الى هذه الساعة ؟ .. هذه آفتها ! .. فهى تدخل المحل ثم لا تعرف كيف تخرج منه ، لأنها تنسى نفسها بين أكداس البضائع المعروضة ! » .

ورأى أن يدارى الجوع الذى بدأ يشعر به ، فقرر أن يتسلى باعداد المائدة . وكان بحكم الخبرة السابقة يعرف أين تضع الأم فيكتوار أدوات المائدة والصحاف ، فبسط المفرش الابيض ، ثم جعل ينسق الصحاف والسكاكين والشوك والاكواب . وكان كل شىء

جميلا نظيفا ، فراقت له لعبة تدبير المنزل هـــذه ، وانصرف عنه الغضب . وتخيل منظر زوجته وقد فتحت الباب لتجده يقوم بهذه الأعمال المنزلية ، فتمثلت له ضاحكة كالأطفال ، وقد زادها الضحك وضاءة وملاحة ؟

ووضع قارورة النبيذ وسط المائدة ، وبجانبهـــا فطيرة اللحم فى طبق كبير ، ثم تذكر شيئا كان قد نسيه ، فأخرج من جيبه لفافتين من الورق ، أخرج من احداهما علبة سردين ، ومن الاخرى قطعة كبيرة من جبن الجروير .

وأعلنت الساعة منتصف الرابعة بدقة واحدة رنانة ، فراح روبو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد أرهف سمعه لكل نأمة على سلالم الدار العالية . ولما سئم هذا الانصات العقيم ، وقف فى وسط الحجرة أمام المرآة يستطلع صورته !

وكان قد ناهز الأربعين ، ولكن شعره المتموج ما زال أحمر كالعهد به ، ولحيته الشقراء النامية غزيرة كالعهد بها . وهو متوسط الطول ، متين البناء .

وراقت له صورته لأنه لم يلتفت لصفات أخرى غير تلك ، فرأسه مسطح بعض الشيء ، وجبهته ضيقة ومقعرة قليلا ، وعنقه غليظ ، ووجهه وردى مستدير تلمع فى وسطه عينان كبيرتان كثيرتان الحركة، وحاجبان كثان مقترنان بصورة توحى بالافراط فى الغيرة . ولما كان قد تزوج امرأة تصغره بأكثر من خمس عشر سنة ، فقد كان يطيب له أن يستوثق عن طريق المرآة من مزاياه ، أو ما يرى أنها مزاياه !

وطرقت سمعه أصوات أقدام تصعد السلالم مسرعة ، فخف الى الباب يفتحه ، ولكن خاب أمله . فلم تكن القادمة الا فتاة تبيع الصحف فى المحطة ، عادت الى مسكنها لشأن لها . وفيما هو عائد الى المرآة رأى على مائدة الزينة صندوقا من الاصـــداف النادرة ، كانت زوجته قد قدمته هدية لحاضنتها القـــديمة الأم

فيكتوار . وسرعان ما طفرت الى ذاكرته قصة زواجه الذى بلغ اليوم من العمر ثلاث سنوات ، وراحت تتوالى مراحلها أمام مخيلته !

لقد ولد فى باسان في جنوب فرنسا حيث كان أبوه حوذى عربة نقل . وبعد أن أدى الخدمة العسكرية بنجاح ظفر برتبة وكيل الاونباشى ، ثم عمل حمالا فى محطة مانت حيث رقى بسرعة لقوة بنيته ومثابرته وطاعته ، فصار رئيسا للحمالين فى محطة « بارينتان » . وهناك التقى بزوجته وهى قادمة من « دوانفيل » لتستقل القطار فى صحبة الآنسة « برت » كريمة السيد « جرانموران » .

وكانت سيفيرين أوبرى أصغر أولاد بستانى توفى وهو فى خدمة السيد جرانموران فكفلها ذلك السيد من بعده ، وجعلها مرافقة لابنته وبعث بهما معا الى مدرسة داخلية للبنات فى روان .

كل هذه الظروف ، فضلا عما تميزت به سـيفيرين من وجاهة طبيعية ، جعلت « روبو » يضمر لها رغبة قوية ولكن على مبعدة ، كما يتدله الانسان شغفا بجوهرة ثمينة لا سبيل ليده الى امتلاكها عن يقين !

كانت حبه الوحيد ، وما كان ليتردد فى الزواج منها حتى ولو لم تأته بدانق واحد بائنة زواج . فلما واتته الشجاعة أخيرا فطلب يدها ، وافقت فورا .. فتبدلت الحياة فى عينيه ، واكتست حلة بهيجة .

أما السيد جرانموران كافل الفتاة ووالدها بالتبنى ، فكان قاضيا متقاعدا ، وعضوا فى مجلس ادارة شركة سكة الحديد الغربية ، فمنح سيفيرين صداقا قدره عشرة آلاف فرنك ذهبا ، كما شمل الخاطب برعايته السامية ، وكانت هديته له فى الصباح التالى ليوم القران أن عينه معاونا لمحطة الهافر . وهى وظيفة عالية ما كان يظن أن يظفر بها أبدا برغم ما عرفه عنه من المثابرة والأمانة والجد : اذ أين رئيس الحمالين من معاون ناظر المحطة ؟

ومد « روبو » يده يتشاغل بفتح صندوق السردين ، حتى اذا تم له ذلك نفد صبره ، وراح ذلك السؤال الملعون يلح عليه :

ـ اين تراها ذهبت ؟ وماذا تصنع حتى الآن ؟ ان شراء حذاء جديد وستة قمصان لا تستغرق كل هذا الوقت !

ورفع عينيه الى المرآة ، كانما ليسأل نفسه هذه الأسئلة ، فلحظ احمرارا بعينيه ، ورأى خطا قاسيا قد ارتسم على جبهته فزادها ضيقا !

انها الغيرة تأكل قلبه !

وما كانت الريبة لتجد طريقها الى قلبه وهما فى الهافر ، اما هنا فى باريس ، فما أكثر المزالق والأخطار !

وصعد الدم الى رأسه ، وضم قبضتيه ضما وثيقا ، كما كان يضمهما فيما مضى ليرفع الحقائب الثقال وهو حمال فى محطة مانت . لقد قلبته الغيرة وحشا ضاريا يوشك أن يفتك بها وهو لا يدرى !

... وفجأة ظهرت سيفيرين فى فرجة الباب ضاحكة السن طلقة المحيا ، وصاحت به فى جذل طفلى .

ـ هأنذا ! لا شك انك ظننتنى قد ضللت الطريق ؟!

وكانت طويلة القامة ، رشيقة ، دقيقة العظام ، لفاء القد ، واسعة الفم ، تفتر شفتاها عن صفين من الدر النضيد ، وتفيض عيناها الزرقاوان سحرا ، من تحت شعر فاحم مرسل ناعم يزيدها فتنة على فتنة !

ولما رات زوجها لا يجيبها ، وينظر اليها نظرته التى تعرفهـــا جيدا حين يكون غاضبا أو متبرما ، أسرعت تقول له :

ـ كنت أعدو ، لأن العربة العامة تأخرت ، ولم اشأ ان أبذر المال فى ركوب عربة خاصة ، فجعلت أجرى .. انظر كيف سخن بدنى بالجرى !

فصاح بها فى حدة الغضب : « دعى هذا الكلام ! . لن أصدق أنك عدت سائرة على قدميك من البون مارشيه .. »

فطوقت عنقه بذراعيها وسدت فمه بيدها وقالت :

ـ الا تحس بسخونة جسمى من اثر الجرى والمشى الطويل ؟ .. ايهـا الولد الشرير ! اهدأ .. فقـد علمت أننى أحبك ، ولا أحب سواك !

وكانت تتكلم فى حرارة ، وكان يعرفها نقية الصفحة ، فانتشى بالكأس التى قربتها من شفتيه ، واجتذبها الى صدره اجتذابا عنيفا، ثم راح يغمرها بالقبلات ، بينما هى صامتة لا تبادله اياها . فأحزنه ان يراها اقرب بسلوكها الى حب البنوة منها الى حرارة العاشقة الناضجة المشفوفة . وعلل نفسه انهـا ستنمو يوما وتتجاوز تلك الطفولة الى طور الأنوثة . وسألها وهو يداعب شعرها :

ـ لقد غزوت اليوم اذن البون مارشيه .. ؟

ـ سأخبرك بكل شىء ، ولكن بعد ان نتغدى أولا . فانك لا يمكن أن تتصور كم انا جائعة ! ومعى هدية لك ... هدية صغيرة !

ثم دست يدها فى جيبها وقبضت على شىء أخفته فى راحتهـا وقالت ضاحكة :

ـ هيا أيها الصغير . اغمض عينيك وقل « أريد هديتى يا أماه ! » .

فضحك وقد ذهبت عنه آخر آثار حنقه وقال بامتثال : « أريد هديتى يا أماه ! » .

وكانت الهدية مدية قوية الحد ، تعويضا له عن مدية كانت له واضاعها منذ أسبوعين فاغتم لضياعها غما شديدا ، فصاح صيحة فرح واعجاب بمقبضها العاجى وحدها اللامع !

وجلسا لتناول الطعام فى جذل وشهية ، ومن النافذة المفتوحة كانت تصل الى آذانهما انغام معزف وأصوات غناء من مسكن آل دوفرنى . وفى نشوة الفرح بالحياة والاقبال على الطعام اعترفت له بالمبلغ الذى دفعته فى مشترياتها ، وهو يقرب من الثلاثمائة فرنك التى أدخرتها طول الشتاء ، فهتف « روبو » :

ـ ويحى ! هذا أكثر مما ينبغى لزوجة معاون محطة !

ـ ولكنى لم أستطع يا عزيزى مقاومة الاغراء . وكانت الصفقات

رخيصة جدا ، والفــــرص التى عرضت لى نادرة ، فانتهزتها . فالصدار المطرز مثلا دفعت فيه نصف ما كنت أدفعه فى الهافر . وعندما تصل البضاعة بالبريد ستراها بنفسك فقد طلبت منهم أن يرسلوها بالبريد ، حتى لا أحملها بنفسى .

وكان فرحها ساذجا صافيا ، بحيث استل من صدر « روبو » كل رغبة فى الملام ، فضحك ، وجعل يعب النبيذ ، مستريحا الى العزلة مع زوجته الصغيرة الفاتنة فى هذه الحجرة ذات المقــاعد الوثيرة والفراش الوثير . اما هى ، فلم تكن تشرب الا الماء عادة ، ولـكنها فى هــذه المرة شربت كوبا مترعا من النبيذ الابيض مرة واحدة ، فتوهجت وجنتاها ، وتكسرت عيناها ، وأتت على ما بقى من السردين . وفتح « روبو » المدية ليقطع بها الفطيرة ، وعندئذ هتفت به :

ــ ماذا بك ؟ . انك تدعنى اتكلم طويلا ولا تقول لى انت شيئا عن موضوع وكيل المحافظة الذى استدعيت من أجله الى هنا ؟!

فقص عليها نبأ مقابلته لرئيس قسم الحركة والركاب ، وكيف انه صارحه بكل شىء ، ودافع عن موقفه ، فما كان ليسمح لوكيل المحافظة باصطحاب كلبه فى عربة الدرجة الأولى . وانتهت المقابلة بتوقيعه خطاب اعتذار لوكيل المحافظ ، واعترف بأنه اولا نفوذ السيد جرانموران لكان جزاؤه صارما .. فصفقت بيديها جذلا وصاحت :

ــ ارايت ؟ . اننى أحسنت بأن كتبت اليه ذلك الخطاب اشرح له ما حدث كى يبسط عليك حمايته فى الوقت المناسب . ثم مررنا عليه قبل أن تذهب لمقابلة مدير الحركة .. لقد كنت واثقة بأنه سينقذنا !

ــ هذا صحيح ، فهو يحبك كثيرا . ونفوذه فى الشركة كبير . ولكن لا شك أن استقامتى وجدى فى عملى لهما أثر فى نجــاح مسعاه !

وساد الصمت لحظة كفت فيها سيفيرين عن الأكل وشرد بصرها

وما من شك انها كانت تفكر حينئذ في ايام طفولتها في قصر دوانفيل على بعد ثمانية أميال من روان . وهى لا تتذكر اليوم أمها ، أما ابوها فمات وعمرها اثنتا عشر سنة . وعندئذ تقدم الأرمل الكهل السيد جرانموران رب القصر لانقاذها ، فقرر أن يربيها مع ابنته برت . وشبت الطفلتان تحت رعاية أخته الأرملة السيدة بونهون التى كانت المالكة الحقيقية للقصر . وقد تزوجت برت التى تكبرها بعامين من السيد دى لاشناى المستشار بمدينة روان . وهو كهل معروق الوجه ، هزيل البنية ، صفراوى اللون !

ومنذ عام ، كان السيد جرانموران قد تقاعد عن خدمة الدولة متدرجا في مناصب القضاء والادارة الى أن وصل الى رياسة المحكمة الاستئنائية في روان . وتبلغ ثروته بضعة ملايين ، فأنعمت عليه الحكومة لمناسبة تقاعده بوسام الشرف . وانها لتذكره اليوم ، كما رأته لاول مرة ، متين البنية ، قصير الشعر ، مدبب اللحية قصيرها بغير شارب ، مربع الوجه ، أزرق العينين ، فولاذى النظرات ، ترتعد فرائص المحيطين به خوفا من بوادر غضبه !

وأمعنت سيفيرين في خواطرها وتذكارات طفولتها ، الى ان نبهها زوجها ، وقد مد اليها يده بقطعة من ذوات نصف الفرنك ، وقال لها مداعبا :

— اليك نصف فرنك ثمنا لما فى رأسك من أفكار !

فارتعدت رعدة يسيرة ، كأنمـــا استولى عليها ذعر مفاجىء ، وقالت : « لم أكن أفكر فى شىء » .

— ولكنك لا تأكلين .. ألست جائعة ؟

— جائعة جدا ! . وسوف ترى !

وشربت كوب النبيذ جرعة واحدة ، ثم أقبلت على قطعة الفطير التى وضعها لها فى صحفتها فأكلتها . ثم توقفا عن الاكل ، لان الخبز الذى جاء به كان قد فرغ عن آخره مع السردين ، ولم يدريا كيف يأكلان الجبن . فقاما يفتشان فى خزانة الأم فيكتوار عن شىء

من الخبز ، فعثرا بعد جهد على قطعة مقددة ، أكلاها بشهية عظيمة وقد توهج وجهاهما بتلك الطرفة الجديدة . وجعل روبو يذكر الأم فيكتوار بالخير ، ثم تطرق الكلام الى السيد جرانموران مرة أخرى ، لأن الأم فيكتوار كانت مدينة له بكل شيء . ففي شبابها الماضي كانت قد استسلمت لرجل أغواها ، فحملت منه ، وهجرها . ثم ماتت طفلتها في الرضاع ، في الوقت الذي فقدت فيه سيفيرين أمهـــا ، فحضنتها وأرضعتها وربتها . ثم تزوجت وقادا في سكة حديد باريس . وكان زوجها هذا سكيرا عربيدا ، فاشتغلت بالحياكة لتعول نفسها . ثم شاء حسن طالعها أن تلتقي بالسيد جرانموران فعينها مشرفة على استراحة الدرجة الأولى بمحطة باريس ، بأجر طيب ، فضلا عن المنح التى كانت تتلقاها من المسافرات الثريات ، بالاضافة الى هذا المسكن المجاني اللطيف !

والتفت روبو بعد ذلك الى زوجته وقال :

ـ لقد نسيت أن أسألك عن شيء .. لماذا رفضت ما عرضه عليك السيد جرانموران هذا الصباح من تمضية بضعة أيام في ضيافته في قصر دوانفيل مقترحا أن يسافر معنا لهذا الغرض في قطار السادسة والنصف هذا المساء ؟ .. انني لست أرى داعيا للرفض ، فاني كما تعلمين أحسن رعاية شئوني بضعة أيام بغير حاجة الى معين . ولا تنسى أننا بحاجة الى انماء علاقاتنا بهؤلاء الناس . ولم يكن من المستحسن تخييب أمله ، ولا سيما بعد ان اظهر الاستياء من ذلك . وعجبت لاصرارك حتى بعد أن ألححت عليك أنا ... فما السبب ؟

ـ وكيف كنت تريدني أن أتركك وحدك في الهافر ؟

ـ ليس هذا سببا ! . فقد ذهبت الى دوانفيل من قبل مرتين وتركتني وحدي أسبوعا كاملا في مرة . فلماذا لم تذهبي هـذه المرة كما ذهبت من قبل ؟

فظهر عليها الضيق ، ثم هزت كتفيها وقالت :

ـ لم أجد فى نفسى ميلا لذلك ! وما اظنك تريد أن تحملنى على ما لا احب ؟

ـ انت وما تشائين . ولكن يخيل الى أنك تخفين شيئا . فهل لم تحسن السيدة بونهون شقيقته معاملتك فى المرة الماضية ؟

ـ كلا ! فهى سيدة طيبة دمثة مهذبة !

ـ اذن هى ابنته وزوجها . فهل عاملاك بفتور ؟

ـ كلا ! فان برت تحبنى كما تعلم . وان كانت بعد زواجها طبعا لم تظل على صلاتها الطفلية بى !

ـ اذن هو السيد جرانموران نفسه الذى لا تستريحين اليه ؟

فصاحت به فى حنق : « كلا طبعا ! . يا لها من فكرة سقيمة ! . ثم انه حين يكون فى القصر ، لا تسنح لاحد فرصة كبيرة لرؤيته ، لانه يقيم فى بيت صغير مستقل خصصه لنفسه فى طرف الحديقة البعيد ! »

ـ عفوك ! . لم اقل لك هذا الا لانك قلت لى مرارا انه كان يخيفك وانت صغيرة !

ـ يخيفنى ؟ . انك يا صاحبى تبالغ فى التعبير على عادتك . انه طبعا لم يكن غاية فى لطف المعاشرة . ونظرته الصارمة كانت كافية لجعل اى انسان يغض الطرف فورا . وقد عرفت اناسا كانوا لا يجسرون على النطق بكلمة فى محضره لما شاع عنه من الشدة . ولكنه لم يكن عنيفا معى قط ، فقد كنت اثيرة لديه !

ومرة أخرى خفت صوتها وشرد بصرها ثم قالت :

ـ اتذكر اننى كنت العب ذات مرة وانا طفلة فى الحديقة مع لداتى وصحبى ، فلما اقترب منا القاضى فروا جميعا مبتعدين ، الا انا ، فقد بقيت فى مكانى ! . حتى ابنته برت هربت ايضا ، وكانت ترتعد على الدوام خوفا من تأنيبه . فلما رآنى ثابتة فى مكانى أتطلع اليه ، ربت خدى ملاطفا . ومنذ ذلك اليوم صرت مقربة اليه جدا ، ولما بلغت السادسة عشرة من عمرى ، كانت ابنته حينما تحتاج الى

اى شىء توسطنى لديه فتظفر بما تريد ، لانى كنت انظر اليه بغير خوف ، حتى حينما يحدق فى وجهى !

ــ لقد كان يحبك كثيرا بالتأكيد . ولم يكتف بتربيتك على غرار بنات البيوتات ، بل أحسن القيام على مالك ، وزاده من عنـــدد بمنحة كبيرة عند زواجك . وذكر على مسمع منى انه اعتزم ان يترك لك ايضا شيئا له قيمة فى وصيته !

ــ نعم ، انه يريد أن يترك لى بيته الريفى فى موفراس .. القائم فى الضيعة التى مر وسطها خط سكة الحديد . وكان من عادته أن يذهب اليه أحيانا ليمضى فيه اسبوعا أو نحو ذلك . ولكنى لا اعول كثيرا على هذا الوعد ، فان ابنته وزوجها سوف يجتهدان فى تحويله عن هذا العـــــزم . ثم انى افضـــــل كثيرا الا يترك لى شيئا على الاطلاق !

وكانت تتفوه بالألفاظ الاخيرة فى حرارة وعمق شديدين ، بحيث لفت ذلك نظر زوجها ، فأخرج غليونه من فمه ونظر اليها بعينين محملقتين تملؤهما الدهشة ثم قال بعد برهة :

ــ ما أعجب أطوارك يا سيفيرين ! . انهم يقولون عنه انه مليونير ، فلماذا بالله عليك لا يضع اسمك فى وصيته ؟ . ان ذلك لن يضير ابنته وزوجها شيئا ! . ولن يدهش أحد لذلك اطلاقا ، لان العادة جرت به ما دام قد تبناك وكفلك بعد ابيك . ولا شك ان المـــال سينفعنا !

ثم خطر له خاطر فضحك وقال :

ــ أم تراك خائفة ان يقول عنك الناس انك ابنته ؟ فانت تعلمين ان الرجل سيىء السمعة بالنسبة للنساء ، برغم مظهره الصـــارم المتزمت . ويذكرون عنه فى ذلك مختلف الاقاصيص الغريبة . ويقال انه فى حياة زوجته نفسها كان يعبث بذيل ثياب كل خادمة فى البيت . بل ما زال حتى الآن زير نساء ! .. فهل يستبعد ان تكونى ابنته يا سيفيرين ؟

فقفزت سيفيرين واقفة على قدميها وقد احتقن وجهها وتوهجت عيناها الزرقاوان تحت شعرها الفاحم وصاحت :

ـ ابنته ؟! . لا تمزح فى هذا الموضوع . أسامع انت ؟ كيف يمكن ان أكون ابنته ؟ . انى لا أشبهه . أترى بى شبها منه ؟ . فلنتحدث فى شىء آخر . واذا كنت لا أريد أن اذهب معه الى دوانفيل فما ذلك الا لانى أفضل أن أذهب معك الى الهافر !

فابتسم وراح يهدىء من ثائرتها بيديه . وكانت هذه أول مرة يرى اعصابها تثور . وربما كان ذلك من أثر النبيذ . فلما هدأت قليلاً تطلعت الى الساعة وقالت : « ان الساعة قد تجاوزت الرابعة . وأمامى مهام يجب أن اقضيها قبل أن نستقل القطار » .

وكأنما أرادت أن تنفض عنها آخر أثر لثورتها فتوجهت الى النافذة واطلت منها . فتبعها الى هنـــــاك ، وأحاط خصرها من الخلف بذراعيه ، ثم وضع ذقنه فوق كتفها وبدأ يداعبها ، فغمغمت فى اضطراب : « كلا ! . دعنى ! » .

فلم يجبها ، وراح يشدد ذراعيه حول خصرها ، وقد دارت برأسه حرارة جسدها البض الملتصق به ، ورائحة عطرها . وزادته اشتعالا تلك المقاومة التى بدت فى تصلب عضلاتها ، فاذا الدعابة تتفجر رغبة عارمة ، فيرفعها بين ذراعيه ، ويهصر عودها بيديه ، ويسحق ثغرها بشفتيه ، بينما هى تتملص وتتضرع اليه قائلة : « ان هذا ليس بيتنا ! » .

وكانت الخمر ، وتغيير الهواء ، والرحلة المفاجئة ، والطعام ، قد لعبت كلها برأسها أيضا ، وألهبت دمهـــــا ، وبعثت الرعدة فى فى أوصالها . ومع هذا استماتت فى مقاومة زوجها الذى طـالما استسلمت لعناقه قريرة العين .

وتقلصت راحتاه الكبيرتان ، فلولا انه ألجم ثورته لسحقها وهو يقول بصوت متهدج :

ـ أيتها البلهاء ! .

ثم جلسا جنبا الى جنب ، وتركها ليغطى وجهه بيديه فى عصبية عنيفة كأنما ليبرد نارا تشتعل فى دماغه . فلما رأته بهذا ، قبلت خده ، كأنما لتقول له انها تحبه على الدوام .. ولكن مع وقف التنفيذ مؤقتا !

وظلا على هذا الوضع بعض الوقت ، ثم مد يده فتناول يسراها ، وجعل يعبث بخاتم كان يزينها على شكل ثعبـــان رأسه قطعة من العقيق .. فقالت فى صــوت حالم ، وهى تظنه يفكر فى ذلك الخاتم :

ـ لقد أعطانيه فى بيته بموفراس ، فى عيد ميلادى السادس عشر .

فرفع روبو رأسه فى دهشة وقال : « من الذى أعطاك اياه ؟ .. القاضى ؟ » .

ولما التقت عيناها بعينى زوجها أفاقت من شرودها الحـــالم ، واكفهر وجهها فجأة ، وهمت بأن تجيب ، غير أن الكلمات وقفت فى حلقها ولم تخرج ، فقال لها :

ـ ولكنك طالما زعمت لى انك ورثته عن أمك !

وكان من اليسير عليها أن تضحك وتقول انها كانت شاردة ، وان أمها هى التى خلفته لها حقا ، ولـكنها ارتبكت وتشبثت بغلطتهـــا قائلة :

ـ أمى ؟ . ولكنى لم أذكر لك أمى فى هذا الصدد مطلقا !

فحملق فى وجهها وقد اشتعلت عيناه غضبا وصاح بها :

ـ ماذا تقولين ؟ . بل قلت لى ذلك وكررته عشرين مرة . ولست أزعم أن هناك بأسا فى أن يمنحك القاضى خاتما ، فقد أعطاك الكثير وصنع لك الكثير . ولكن الذى يدهشنى أن تخفى عنى الأمر الى هذا الحد . ولماذا كذبتنى فيما يختص بأمك ؟

ـ انت مخطىء أيها العزيز . فليس لأمى شأن بهذا ، ولم أقل لك عنها شيئا .

فاستشاط روبو غضبا ، وقبض على معصميها وحملق في عينيها ، كأنما يريد ان يقرأ في حدقتيها المرتعبتين ما لا تجسر على البوح به صراحة ، ثم صاح :

ـ يا الهي ! يا الهي !

فلم تدر الا وهي تغض بصرها وتخفي وجهها في ذراعها ، لكي تتقي لطمة وجهها اليها !

لقد كان سهوا بسيطا ، في لحظة شرود ، هو الذي أوقعها في هذا الحرج ، وكشفت له عن كذبها .. لقد نسيت ، ولم ترع القاعدة الذهبية في الكذب ، التي تقول : « ان كنت كذوبا فكن ذكورا » ... فحدث هذا كله في بضع دقائق ، وكشفت ارتباكها من الهوة السحيقة التي كانت تخفيها عنه بتمويهها هذه المدة التي تبلغ ثلاث سنوات !

ثلاث سنوات لم يضربها فيها ، ولم يركلها ، ولكن ها هو ذا اليوم يهوى على وجهها صفعا ولكما بيديه الهائلتين : يدى حمال حقائب جلف ! . وكان يهوى بهاتين اليدين في غضب جائح أعمى ، وهو يهتف بصوت متحشرج :

ـ أيتها الكلبة ! . لقد نالك هذا الكلب المسعور ! . لقد ولغ فيك هذا الوحش الهرم !

وكان يشفع كل سبة بضربة عنيفة ، كأنما يريد ان يحفر معانيها وألفاظها في جسدها ، وهي لا تقول شيئا الا كلمة واحدة ترددها بصوت مخنوق :

ـ كلا . كلا !

ثم أمسكها من كتفيها بحيث لا تحول وجهها عنه وراح يهزها بعنف ويصرخ :

ـ اعترفي ! . اعترفي والا قتلتك بهذه المدية !

ورأت في عينيه أنه يعني حقيقة ما يقول ، وكانت قواها قد خارت ، فغمغمت :

ـ ليكن ما أردت ... اني اعترف ... فدعني !

سر خطير

كان لاعتراف سيفيرين وقع الصاعقة على زوجها الفيور روبو . فأخذ يضرب راسها بالمائدة ، ثم راح يجرها من شعرها الذى طالما كان روضة احلامه ونزهة غرامه ، ويمسح بجسدها الناضر الارض ، ويضرب بها الاثاث والجدران ويقلب المقاعد ، وكلما همت بأن تنهض على قدميها القى بها الى الارض وهو يصرف بأسنانه كالوحش الضارى ، الى أن تفجر الدم من كدمة فى جانب راسها ، فوقف كالمشدوه ، واخذ يحملق وهو يلهث ، يحملق فى ذلك السائل الأحمر ! أما هى فتهاوت على الفراش ، فجثا على ركبتيه الى جوارها وجعل يهزها ويطاردها بعد اللكمات بالأسئلة ، يريد أن يعرف تفاصيل مأساته ، وكيف وأين ومتى تلوث شرفه وانتهكت رجولته :

— أنت اذن قد سلمت نفسك له . أيتها الكلبة ! . أعيديها على سمعى ! . وكم كان عمرك حينذاك ؟

فانفجرت باكية ولم تجب ، فراح يستعطفها وهو يرفع يديها عن عينيها :

— خبرينى بحق السماء ! . هل كنت دون العاشرة ؟ . أظنك كنت تدعينه يعابثك وانت ساكنة ... تحت ستار الأبوة والكفالة ؟ .. هذا الكلب ! لهذا تكفل بك .. ليربيك على مزاجه ولخدمة شهواته الأثيمة .. خبرينى بكل شىء والا بحق الشيطان لاعيدن الكرة حتى اقضى عليك ! . كم كان عمرك عندما عبث بك اول مرة ؟

ولم تستطع أن تقاوم أمام هذا الطوفان الطاغى ، فاخذت تكشف أسرارها له واحدا واحدا ، حتى أنبأته بكل شىء تحت ضغط أسئلته

المتلاحقة ، بينما الرعب والخزى يتنازعانها حتى لم تكن كلماتهـــا لتزيد على همس منخفض لا يكاد يسمع !

وكان كل اعتراف من هذه الاعترافات كأنه خنجر يمزق احشاء « روبو » ، ومع هذا كان يستزيدها فى الحاح ، كأنه يجد لذة فى هذا العذاب ، وقبضته القـــوية مرفوعة فوق فمها على أهبـة الانقضاض ليسحقه ان هى جسرت على السكوت أو التوقف لحظـة لتسترد أنفاسها !

وعلى هذا النحو المفاجىء ، استعادت حوادث طفولتها كلها فى دوانفيل . ثم حوادث صباها . وكل عبث صغير ، وكل مداعبة ماجنـة ، وكل اعتـداء سطحى أو جدى . واعادت هذا كله على سمعه !

وكان يسألها : متى ، وكيف ، وأين ؟ . وهل فى الضحى أو فى العصر ؟ . فى أدغال الحديقة ؟ أم فى دهاليز القصر ؟ . وهل كان ذلك الهدف القذر فى خاطره حين تبناها ؟ . وهل لم يكن نفوذها لديه وتوسطها عنده لابنته لأنه شرع يميل نحوها ذلك الميل الذى طالما انتهى بتقويض سمعة الخادمات من قبل ؟ . ويا له من وحش قذر ، يقبلها كأنها حفيدته قبلة الجد الحنون ، ثم لم يتورع عن شىء قبل أن تستكمل نموها وتغدو امرأة ناضجة الأنوثة !

ـ خبرينى . كم كان عمرك حين اعتدى عليك اعتداء كاملا لأول مرة ؟

ـ ستة عشرة عاما ونصف عام !

ـ كذابة !

ـ ولماذا اكذب عليك بعد أن عرفت كل هذا ؟

ـ وأين حدث ذلك ؟

ـ فى بيته بضيعة موفراس ! .

وسكت روبو سائلا نفسه كيف يمكن ان يعيش معها بعد الآن وهذه الصورة تتراءى له على الدوام ؟ انه لا يستطيع ان يحتمل هـــذا العذاب !

وفجاة راح يهزها بعنف ويسالها :

ـ ايتها الكلبة ! . لماذا تزوجتني ؟ الم يخامرك الشك في انك تقترفين اثما كبيرا وغشا سافلا بخداعي ؟ . انك أسفل من اللص في سجنه ! انك لا يمكن ان تكوني قد احببتني . لماذا اذن تزوجتني ؟

وكيف تراها تعلم الآن ؟ لقد رحبت بذلك الزواج وقتئذ لانها رات فيه باب الخلاص لها من تلك العلاقة الشاذة مع القاضي الشيخ !

ـ آه ! انت اذن لم تكوني حبيبتي ..

ـ احببتك بعد أن طلبت يدي ! . ولكني أردت ان اجنبك الم الحقيقة المرة .. ولكيلا تظن انني لولا ذلك الاضطرار لما رضيتك زوجا !

ـ واحسب القاضي هو الذي اغراك بالقبول ... فانه اراد ان يطمئن على مستقبلك في كنف مغفل مثلي مخدوع ! .. ولن يحرمه الزواج من متعته المحرمة في أمان . اليس كذلك ؟ . واليس هذا هو السر في دعوتك لضيافته في المرتين السابقتين ؟

وهزت رأسها بالايجاب ولم تنطق ، فعاد يسالها :

ـ اليس لهذا الفرض ايضا دعاك صباح اليوم الى تلك الزيارة الثالثة ؟ .. لقد كان من الممكن أيضا ان تستمري في خداعي الى الابد ! . آه انني لم أضع الآن حدا لحياتك الدنسة ، فلا شك انك ستستأنفين تلويث شرفي !

وامتدت يداه نحو عنقها ، يهم بان يخنقها ! . ولكنها تمردت في هذه المرة وصاحت :

ـ هذا ظلم ! . أنت تتجني علي ! لقد الح ولكني انا التي رفضت ان أذهب . والححت انت فأصررت على الرفض ! . اليس هذا دليلا على انني لم أكن أريد الذهاب ؟ لقد انتهى كل شيء ! وما كنت لاعود الى ذلك أبدا من تلقاء نفسي !

وشعر بانها تقول الحق ، ولكن ذلك لم يخفف عنه . فالجراح

الهائلة التي في احشائه قد سببتها تلك الأشياء الماضية التي لا سبيل الى تداركها الآن . وأفدح آلامه ناجم عن عجزه عن محو ذلك الماضي . والصق وجهه بوجهها ثم جعل يغمغم كالحالم :

ـ في الغرفة الحمراء ببيت ضيعة « موفراس » .. انى أعرف تلك الغرفة التى تطل نوافذها على الخط الحديدى .. اذن فى هذه الغرفة وعلى ذلك الفراش ... لا عجب أن يفكر فى ترك البيت لك فى وصيته . انك كسبته بالعرق . لا عرق الجبين أيتهـــا الساقطة ! . كما اكتسبت أيضا تلك العناية التى بذلها لتنمية مالك الموروث والصداق الذى منحك اياه عند الزواج ! . ثم لعله أيضا ابوك !

فبذلت مجهودا قاسيا ودفعته عن صدرها وهى تصرخ :

ـ لا تقل هذا ! . افعل بى ما تريد . اضربنى . اقتلنى . ولـكن لا تقل هذا أبدا فانه كذب . كذب واختلاق دنىء !

ـ ومن أين لك أن تعرفى ؟ . ان شكك فى الموضوع هو الذى يؤلمك !

فجذبت يدها من يده بعنف ، فخرج الخاتم فى يده . فالقاه على الأرض وسحقه بقدمه ، ثم جعل يتمشى فى الحجرة فى هيـــاج صامت ، وقد فقد كل سيطرة له على نفسه ، فانقلب من الآدمية الى الوحشية ، وغدا تعطشه الى الانتقام ضرورة كضرورات الجســد الملحة . ثم ضرب جبهته بيده وقال :

ـ والآن ماذا أصنع ؟

وكانت حيرته ناجمة عن ثقته بأن ابطاءه فى قتل هذه المرأة حتى الآن جعل اقدامه على قتلها غير مستطاع فيما بعد . واسخطه على نفسه أنه جبن عن قتلها وهو فى ثورته .. ومع هذا فهو لا يمكن أن يحتفظ بها ! . فهل يلقى بها الى الشارع ويقطع كل صلة بها فلا يرى لها وجها بعد الآن ؟

الآن موجة جديدة من الألم قد استولت عليه لأنه لن يجد فى نفسه

الشجاعة حتى على ذلك الاجراء المتواضع . فماذا يصنع اذن ؟ هل يأخذها معه الى الهافر ويستأنف معاشرتها كأن شيئا لم يحدث ؟ . كلا ! خير من هذا الف مرة أن يموتا معا فى التو واللحظة !

وكانت سيفيرين تتابع حركاته بعينيها وهى جالسة فوق الفراش . ولم تخل من الرثاء له ولما يشعر به من الم فظيع ! .. وكانت حرية أن تغفر له بشجاعة الفاظه وضرباته لولا قسوة المفاجأة . فقد كانت زلتها شيئا قد انتهى وهى طفلة جاهلة لا تملك حولا ولا طولا . فلا يمكن لهذه الزلة أن تبرر مثل هذه الثورة العاتية . ثم انها برهنت بقبولها الزواج منه على ندمها ونفورها من تلك الحياة ورغبتها فى الاقلاع عنها !

والواقع انها حتى هذه اللحظة لم تكن حواسها الجنسية قد استيقظت يقظة كاملة ، برغم مرور ثلاث سنوات على زواجهما . ولهذا بقى سر هذه الثورة غامضا عليها ، وتمثل لها هياج زوجها وكأنه ذئب أو كائن وحشى من كوكب آخر . وما من شك فى أن روبو كان ذا طبع عنيف نادر المثال . فكانت كلما حاولت أن تستجمع شجاعتها وتكلمه ، تراه منصرفا عنها الى أفكاره وحيرته ، ثم يردد فى يأس :

— ماذا أصنع ؟ .. ماذا أصنع ؟

— ولكن يا عزيزى .. أنا نفسى رفضت أن أذهب . وما كنت لأذهب مهما تكن الاحوال ، فأنت هو الشخص الذى احبه !

واجتذبته اليها ورفعت اليه ثغرها ليقبله ، فجلس بجانبها ثم لم يلبث أن دفعها بعيدا عنه فى رعب وقال لها :

— الآن فقط أيتها الكلبة !؟ .. أتظنين أن هذه هى الطريقة التى تستردينني بها ؟ .. أنت سم حياتى بعد أن عرفتك على حقيقتك !

وارتعدت فرائصه ذعرا لمجرد تفكيره فى الاستجابة لعواطفها كما كان يفعل كل يوم ، وجن جنونه وقد تمثلت أمام عينيه صورة جسديهما متعانقين ، ومرت بسرعة البرق أمام وجدانه لحظات

تعانقهما السابقة ، فتبين على الفه صروره الموت . ضروره موت ،ى انسان !

ــ اذا كنت لا اريد ان يقتلني لمسك ، فيجب ان اقتله اولا ، ويجب ان اقتله ! اتسمعين ؟

وارتفع صوته وهو يردد هذه العبارة ، وقد انتفض قائما . وظهر العزم على محياه . واتجه الى المائدة فتناول المدية المفتوحة اللامعة النصل فاقفلها ووضعها فى جيبه وقطب حاجبيه ثم فتح النافذة لترطب انسام المساء حرارة دمه الفائر . وحدق فى السماء الزرقاء الداكنة برهة ، وقد اخذت تسقط المطر رذاذا . ولما استدار نحوها رات على وجهه امارات العزم . والقى نظرة على الساعة المعلقة على الحائط وقال بصوت مرتفع :

ــ منتصف السادسة !

وادهشه الا يستغرق هــذا التحول الــكامل فى حياته الا ساعة واحدة . مع انه ظن أن دهرا انقضى وهما فى العذاب والنضال . ثم فتح درجا واخرج منه قلما وزجاجة حبر وورقا وقال لها :

ــ خذى هذا .. خذيه واكتبى .

ــ اكتب لمن ؟

ــ اليه ... هيا اجلسى !

ولم تجرؤ على سؤاله عما ستكتب ، غير انهــا ابتعدت بحركة لا شعورية عن الكرسى ، فدفعها الى الجلوس بعنف وقال لها :

ــ اكتبى ما يأتى : « اركب قطار السادسة والنصف السريع .ولكن لا تظهر نفسك قبل محطة روان » .

وكانت يدها ترتعد بالقلم ، وهى مشفقة من السر الذى يكمن وراء هذين السطرين . ورفعت وجهها اليه وتضرعت قائلة :

ــ خبرنى بربك ماذا تريد ان تفعل ؟

ــ سترين ماذا سأفعل ! . واكثر من هذا ستشتركين معى فيه . فعلى هذا النحو سيجمعنا رباط واحد وثيق !

ـ كلا ! . لن اكتب قبل ان اعرف ماذا تريد ان تصنع !

فتلت ذلك زوبعة من العنف كاد يهشم فيها يدها حتى بكت وتلاشت مقاومتها ولم يسعها الا ان تطيع . فلما كتبت السطرين تناول الورقة وقال لها :

ـ احسنت ! . والآن رتبي الغرفة الى ان أعود اليك !

وبكل هدوء عقد رباط عنقه أمام المرآة ولبس قبعته ، وخرج ثم اغلق الباب بالمفتاح !

وفي الساعة السادسة والربع كان الأمر قد صدر باعداد القطار المسافر الى الهافر على الرصيف الجانبي . وفي السادسة والثلث دخل روبو وسيفيرين الى المحطة حيث سلمت سيفيرين مفتاح الحجرة للأم فيكتوار في حجرة انتظار الدرجة الأولى ، ثم جرها من يدها جرا الى الرصيف فشقا طريقهما في الزحام باحثين عن ديوان خال في عربة الدرجة الأولى . وعثر روبو أخـــيرا على ديوان مناسب ، وهم بأن يساعد سيفيرين على الصعود . وعندئذ مر ناظر المحطة « فان دورب » مع مفتش الحركة « دوفرني » الكبير ، فسلما عليه وانصرفا لمراقبة الحاق عربة خاصة اضافية بالقطار . والمفهوم أن هذه العربة الخاصة لا تضاف للقطار الا من أجل احـد مديري الشركة حين يعتزم السفر . وكان روبو يعلم جيدا من هو هذا المدير . انه عضو مجلس الادارة القاضي السابق . ولا سيما أن طلب العربة الخاصة جاء في آخر وقت !

وبلغت الساعة السادسة والدقيقة السابعة والعشرين ، ولم يبق الا ثلاث دقائق على موعد قيام القطار . واذا القادم المتـاخر يعبر الرصيف وعلى ذراعه معطف فضـــفاض ، وياقة ســـترته تحيط بنصف وجهه الأسفل . وقبعته مرخاة فوق جبهته . فلم يظهر من وجهه في ضوء المصباح الخافت الا لحية بيضاء . ولم يحترم الناظر والمفتش هذا التنكر فأديا التحية وتبعاه الى ان ركب عربته الخاصة وعرفت سيفيرين هذا القادم فتهاوت مرتعدة في مقعدها . وحصر

زوجها ذراعها فى تحذير آمر وفرح ، لأن الخطة سارت فى طريق النجاح !

ودوى الناقوس واوشك القطار أن يتحرك . وفى هذه اللحظة زمجر روبو ساخطا لأن أحد الحمالين فتح باب الديوان وأدخل عليهما امرأة بدينة فى ركن ونامت بمجرد تحرك القطار وصمت الزوجان فلم يعكر الصمت فى الديوان الا هدير القاطرة وصوت قطرات المطر تضرب زجاج النافذة !

حارسة الكنز

كانت القطارات المارة ببيت ضيعة موفراس تهزه من اساسه ليلا ونهارا ، ونظرة واحدة الى هذا البيت من نافذة القطار المسرع تكفى لرسوخه فى الذاكرة ، وان كان ملايين المسافرين قد فطنوا اليه من غير ان يعرفوا أى شىء عنه .

والغالب على هذا البيت ان يراه الناس مغلقا ، أشبه بالمهجور ، وقد لوحته من جهته الغربية الأمطار المتلاحقــة . وزاد فى وحشة البيت المغلق ان ما حوله بمقدار ميلين من كل جانب قفر من المساكن، فيما عدا الكوخ الخاص بحارسة الممر الذى يقطع الخط الحديدى . وهو كوخ منخفض متواضع المظهر متصدع الجدران تكسو الطحالب سقفه المتعرج ، وتحيط به حديقة صغيرة من حدائق الخضروات ، حولها سور منخفض من النباتات الشوكية ، وفى وسطها بئر تعلوها قبة تكاد تطاول الكوخ فى ارتفاعها .

ويقــع الممر فى منتصف الطـــــريق بين محطتى « مالوناى » و « بارنتان » ، على بعد ميلين ونصف ميل من كلتيهما . والحقيقة أن طريق المارة الذى يعترضه الخط الحديدى فى تلك المنطقة لم يعد مطروقا ، لاقفار المنطقة من السكان ، وانمـــا بقى الممر فى هذا الموضع لحماية الحجارين ومركباتهم وهى آتية بالأحجار من محاجر بيكور التى تبعد مقدار ميلين فى جوف الغابة .

وعلى الجملة ليس فى الامكان أن يتصور الانسان منطقة أشدوحشة واقفارا من هذه المنطقة ، ولا سيما وراء النفق القائم عند مدخل « مالوناى » فهو يحجز الناس عن المنطقة ، ويجعل الزوار اندر فى تلك البقعة من الكبريت الأحمر !

وفى ذلك المساء ، هبط مسافر الى محطة « بارنتان » واخذ يخترق الدرب المتجـــه الى « موفراس » . وهو درب تحيط به الصخور والمرتفعات والمنخفضات القاحلة ، ويخيم عليه السكون ليلا ونهارا .

وكان ذلك المسافر شابا متين البنية مسرع الخطـــا ، كأنما يريد أن ينتهى بسرعة من هذه البقعة الموحشة !

وفى حديقة الكوخ وقفت فتاة فى الثامنة عشرة تنزح الماء من البئر ، وكانت طويلة القامة ، شقراء اللون ، واسعة الفم ، تضرب عيناها الى الخضرة ، منخفضة الجبهة ، غزيرة الشعر . ولم يكن فيها من مخايل الجمال شيء ، بل أنها على العكس كانت أشبه بالغلمان فى ضخامة عضلاتها وضمور عجيزتها . ولما رأت ذلك المسافر مقبلا وضعت الدلو على الأرض وأسرعت الى باب الحديقة وصاحت بأعلى صوتها : « جاك ! » .

ورفع جاك رأسه ليجيب نداءها وترحيبهـا ، فـاذا هو فتى فى السادسة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، أسود الشعر ، منتظم الملامح مستدير الوجه ، بارز الفك من جانبى وجهه ، يخفى شعره الغزير وشاربه الكث ما فى وجهه من شحوب . ولولا الشحم العالق بيديه الصغيرتين لظنه الرائى لوسامته واناقته ونعومة خديه الحليقين واحدا من أبناء العلية أو السادة ذوى الأقدار . الا ان ذلك الشحم الأصفر على يديه التى استعصى على الغسل والتنظيف نم على مهنته فى معالجة الآلات !

واجابها : « طاب مساؤك يا فلور ... » . ثم سرعان ما حول نظره عنها ونظر الى الجهة الأخرى ، وقد اختلجت شفتاه اختلاجا ظاهرا . ولم تغب عن فطنتها تلك الرعدة التى يغالبها جهده كلما جمعته الظروف بامرأة عن كثب . ولكى يخفى ارتباكه سألها :

ـ « هل والدتك بالدار ؟ » .. مع انه كان يعلم على اليقين ان والدتها مقعدة لا تملك مبارحة الدار منذ زمن بعيد !

وأجابته بايماءة من رأسها ، ثم انتحت جانبا كى تتيح له ان يمر

من باب الحديقة من غير ان يحتك بها ثم عادت بخطوة ثابتة وراس شامخ الى البئر !

واسرع الفتى باجتياز الحديقة الصغيرة ثم دخل الكوخ ، وكانت الحجرة الأولى ، وهى مطبخ واسع ، يعد مركز النشاط كله فى البيت ، فوجد عمته « فازى » جالسة على مقعد منخفض قرب المائدة وقد لفت ساقيها بشال عتيق !

ولم تكن العمة فازى أخت أبيه ، بل بنت عم ابيه . ولما رحل ابواه الى باريس وهو صغير كفلته ، فتربى فى كنفها ببلدة بلازان وأرسلته الى مدرسة الصناعات حيث تعلم حرفة الميكانيكا . ولهذا يشعر فى قرارة نفسه بانه مدين لها بكل شيء . ولا سيما وقد أصبح بعد عامين من تخرجه مهندسا فى سكك حديد الغرب !

وكانت عمته قد ترملت وتزوجت من حارس البوابة وأتت ببنتيها كى تقيم مع زوجها الجديد فى كوخه هذا . ومع أنها لم تكن تجاوز الخامسة والأربعين ، وكانت الى عهد قريب من المشهورات بالجمال ، بدت كأنها فى الستين من عمرها ، فتغضن وجهها ، وذهب رونقها ، وباتت الرعدة تنتابها باستمرار !

واطلقت العمة فازى صيحة حبور حين دخل عليها جاك فلثم خديها واخبرها انه ظفر بأجازة اجبارية ، وذلك لأن القاطرة التى يقودها كسرت بعض أجزائها ويحتاج اصلاحها الى أربع وعشرين ساعة على الأقل ، ولهذا فلن يغادر بها محطة الهافر قبل الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من اليوم التالى . وانفسح أمامه الوقت كى يمضى الليلة معها ثم يركب قطار السابعة والنصف صباح غد من برنتان الى الهافر ، ثم جعل يضغط على يدها الشاحبة بين يديه وقال لها :

ــ ان خطابك الأخير اقلق بالى يا عمتاه !

ــ اجل يا جاك . ان الأمور ليست على ما يرام . بل هى تمضى من سيىء الى أسوأ يا ولدي ! . ولابد انك فطنت الى مبلغ حاجتى

الى رؤيتك ، مع اننى لم اجسر على الاشارة لذلك صراحة لعلمى مبلغ انشغالك بمهنتك . ولكن شاء الله أن يهيىء الأسباب لحضورك فى وقتك .

وتوقفت لتنظر من خلال النافذة فى قلق . فان زوجها الجديد « مينار » قد ترك حراسة البوابة بعد الزواج وصار ملاحظا للطريق فى كشك خشبى على بعد خطوات من البوابة ، وهو مزود بآلة للبرق كى يرسل الاشارات للمحطات بخلو الطريق من العوائق . وآلت مهمة حراسة البوابة اليهـــا والى ابنتها « فلور » . ولما كانت تخشى أن يكون زوجها عائدا فى طريقه الى البيت فيسمع ما تقول ، خفضت صوتها جدا وهى تقول له :

ــ اعتقد انه يدس لى السم !

فاخذ « جاك » بما سمع ! . ونظر الى النافـذة بحركة آلية ، واحمرت عيناه السوداوان وغامتا كما يحدث له كلما شعر باضطراب أو انفعال ، وغمغم قائلا :

ــ كيف يخطر ببالك شىء كهذا يا عمتى ؟ . انه يبدو وديعـــا جدا !

وظهر مينار فى هذه اللحظة من خلال النافذة ، وهو يغلق الطريق وراء القطار الذى مر منذ لحظات كما هو النظام المتبع كى يشتعل النور الأحمر فى السيمافور ويمنع دخول القطارات قبل مضى وقت مناسب . وكان أصلع ، خفيف اللحيـــة ، نحيل الوجه ، هادىء الملامح . والحق أن أحدا لم يشهده مطلقا يفقد اتزانه أو يثور . فهو رجل يميل للانزواء ... وقالت العمة فازى وهى ترى جاك يتفحص زوجها :

ــ انك لا تعرفه حق المعرفة ، أؤكد لك انه يدس لى السم تدريجا . ويكفى أن تتذكر اننى تزوجته ولى من القوة والعافية ضعف ما له منهما ... واننى الآن كما ترى ... وهو كما هو !

وكانت المرارة تلهب شكوكها ، ولا تجد من تفضى له بذات نفسها

فى العادة ، فما اسعدها بهذه الفرصة كي تتخفف من بعض ما بها ! . واخذت تصب السباب واللعنـــات علي ذلك الزوج ، وتلوم نفسها للزواج منه مع انها ام بنتين كبراهمـــا فى الثامنة وصغراهما فى الســادسة ، وكان ذلك منذ عشر سنوات . وهـذه هى الآن عليلة تعسة ، في ذلك القفر الموحش ، لا تجد جارة واحدة تؤنس وحدتها . لقد ترقى الملعون فبعد ان كان اجره السنوى مئة فرنك ، صار الآن الفا ومئتين .. أما أجر ابنتها من حراسة البوابة فلا يزيد على الخمسين فرنكا ! .. فهل يساوى هذا المبلغ هذه الحياة السوداء في مجاهل الشمال القارس ؟ . لا امل لها الآن فى الحياة ... فليس من مستقبل سوى موتها في موفراس هذه كالجردان ! وها هو ذا الآن يريد ان يضع حدا لحياتها ليتخلص منها بعد أن ذوى جمالها وذهبت عافيتها ! ..

وتذكر جاك ما كان لعمته فى أوائل عهدها بالزواج بمينار من شهرة فى المنطقة بجمالها الساحر . وكيف أن جميع المفتشين كانوا يخلقون المناسبات للنزول عند هذه البوابة للتمتع بمجالسة مدام مينار اللعوب . وكيف كان الجميع يتنافسون لنيل رضاها . لقـد تناست عمته ذلك . وتناست ان زوجها لم يكن يضايقها أو يحد من حريتها وهى سادرة فى التمتع بهذا الغزل الطليق . بل كان يتوارى عن الأنظار . فلما ذهب جمالها ، انقطع سيل الزوار .. ولكنها القت على زوجها المسكين مسئولية وحدتها الموحشة !

ولما كان من عادة جاك ان يغيظ عمته على سبيل المزاح ، فقد ابتسم وقال لها :

ــ ربما عمد الى ذلك يا عمتي مدفوعا بالغيرة !

فهزت كتفيها وقالت بازدراء :

ــ ما هذا الذى تقول يا ولدى ؟ . انه لم يكن غيورا فى يوم من الأيام ما دام جيبه عامرا بالمال ، وما دام سلوكى لا يكلفه مالا ! . ان الخلاف بيننا قد نشب بسبب رفضى إعطاءه الألف فرنك التى

ورثتها فى السنة الماضية عن والدى . وقد هددنى بأن رفضى سيكون وبالا على طول حياتى . وهاأنذا قد مرضت منذ ذلك الحين .. منذ ذلك الحين بالضبط . فما معنى هذا ؟

وكان ميالا للاعتقاد بأن مرضها هو السبب فى شعورها السوداوى هذا . ولهذا رأى أنه لو نجح فى التسرية عنها لتحسنت حالتها . غير أنها أصرت على شكوكها ، فنصح لها قائلا :

— اذن ما دمت حريصة على الشفاء ، وهذا هو اعتقادك ، فأعطيه الألف فرنك !

فثارت العمة فازى وهمت بأن تقف على قدميها وجعلت تصيح :

— أعطيه الألف فرنك ؟ . ميراث أبى ؟ . كلا ! . اننى افضل الموت على هذا ! . لقد اخفيتها فى مكان أمين . ويستطيع ان يقلب البيت رأسا على عقب لكنه لن يعثر لها على أثر ! وقد قام بجهد عظيم فى هذا المجال ، وكثيرا ما سمعته فى جوف الليل وهو يطرق الجدران بيده عسى أن يسمع رنينا ينبىء عن تجويف فيها . ولكن عبثـــا يفتش وينقب ، فالألف فرنك فى حرز حريز . ويزيد فى سرورى أن أراه حائرا . فحيرته أمتع لى من الألف فرنك ، ومن استرداد العافية ! . بل لن يظفر بها بعد موتى ، فانى أفضل أن تظل فى حرزها الحريز الى الأبد ، ولا ينالها من بعدى أحد !

وفى هذه اللحظة دوى نفير مينار مؤذنا بأن القطار السريع الذاهب الى « الهافر » من باريس يوشك أن يمر ، فنظر الى النافذة وشاهد أشباح المسافرين فى نوافذ القطار ، وعندئذ لم يطق جاك مغالبة الدعابة فقال لعمته :

— أنت تشكين من انك لا ترين ها هنا انسانا ، ولكن آلاف الناس يرونك كل يوم وأنت فى مكانك هذا . اليس فى ذلك ما يكفيك ؟

— وهل تسمى هؤلاء ناسا ؟ ان هم الا أشباح تماما ، فانى لا اكلمهم ولا يكلموننى ، كأشباح الموتى ! بل انى لست اعرف من هم !

— لا تغالطى يا عمتى ، فانك ترييننى وانا أقود قاطرتى ، وتعرفيننى واراك أنا واعرفك !

ـ هذا صحيح ! . وانى اترقب دائما مرور قطارك لأملأ عينى منك لحظة خاطفة . فانك تمضى سريعا كالبرق . وقد لوحت لى بيدك امس . ولكن لم يتسع لى الوقت كى ألوح لك بيدى ردا على تحيتك . ان مرور هؤلاء الآلاف بى كل يوم مما يزيد فى حزنى . فهم يتحركون وانا ساكنة مقعـــدة ! . وهم يمرحون ويعلمون أن بالقرب منهم امراة مثلى ، فى خطر داهم !

وفى هذه اللحظة رات فلور تفتح البوابة لحوذى يقود عربة المحجر وتقف لتجاذبه طرفا من الحديث . وكان ذلك الحوذى قصير القامة ادكن الشعر .

فقال لعمته :

ـ هل « كابوش » مريض ؟ انى ارى ابن عمه « لويس » يقود جياده !

فرفعت العمة فازى عينيها ثم اطلقت آهة صامتة . فقد حدث فى الخريف الماضى حادث زاد صحتها سوءا . ذلك أن بنتها الصغرى لويزت التى كانت تعمل فى خدمة مدام بونهون ـ اخت القاضى ـ فى دوانفيل هربت من بيت مخدومتها فجاة ذات مساء وهى فى حالة فزع شديد ، ولاذت بالغـــابة ، فى كوخ صديقها القديم كابوش ، وفى غضون الليل فاضت روحها . وشاع أن القــاضى جرانموران قد اغتصب الصغيرة كرها ، فأصيبت بصدمة ادت الى وفاتها . ولكن لم يجرؤ أحد على المجاهرة بهذا الاتهام الهائل .. وحتى أمها لم تجسر على اثارة الموضوع .

وفيما كانت الجياد تجتاز بالعـــربة البوابة ، تعثرت العجلات بالقضبان الحديدية ، فجعلت فلور تساعد لويس على دفعها وتشجيع الجياد بالصياح كى تتغلب على العقبة وتمضى فى طريقها . ورأى جاك ذلك المنظر فقال :

ـ يا اله السماء ! . من حسن الحظ ان هذا ليس موعد مرور قطار ، ولا لحدثت كارثة مروعة يذهب ضحيتها مئات !

فقالت العمة فازى : « لا خوف على أحد ! فان فلور فتاة مدربة قادرة ، مهما تكن غرابة أطوارها ، ولم يحدث فى الخمس سنوات التى تولت فيها أمر البوابة أى حادث ! » .

ولم تلبث العربة ان انصرفت بحملها الثقيل ، وساد الصمت الى ان سألته :

ـ كيف حالك الآن ؟ . اتذكر العلة التى كانت تعاودك وانت معنا ، وكان الطبيب يعجز عن تشخيصها ؟

فقامت عيناه واحمرتا ، ولكنه قال : « انى على خير ما يرام يا عمتى ! » .

ـ والصداع الذى تشعر به وراء أذنيك ، والسوداوية والحمى ، بحيث تلوذ بالاختفاء عن العيون وتضرب عن الكلام والطعام الى أن تزول عنك ؟

وازداد احمرار عينيه ، علامة على الاضطراب الشديد ، حتى انه قاطعها بحدة قائلا :

ـ قلت لك اننى الآن بخير حال ولا أشكو شيئا على الاطلاق !

ـ يسرنى أن أسمع هذا منك يا بنى ! فالصحة أثمن شىء فى العالم . وأنت ولد طيب القلب أهل لكل خير ! . والا لما حضرت الى هنا لتمضى الليلة معى ، مع أنه كان فى وسعك ان تبحث عن المتعة والسرور فى مكان بالمدينة . ان فراشك كما تعرف فى الخزانة العليا ، بجوار حجرة فلور .

ودوى نفير آخر ، وقد ساد الظلام . وسمعا صوت مينار يخاطب شخصا آخر ، لا شك انه بديله الذى يتناوب العمل معه ، وقد جاء ليتسلم نوبة المساء ، وعندئذ قالت العمة فازى فى صوت يرتعد خوفا : « ها هو سيدخل فكن على حذر ! » .

فتأثر جاك لفزعها وقال لها : « انه قد ينثنى عن جريمته اذا عرف اننى على علم بالموضوع . فلماذا لا تعهدين الى فى المحافظة على فرنكاتك الألف ؟ » .

فثارت وهتفت به فى اصرار : « أعهد اليك بفرنكاتى ؟ . كلا ! . لن أعطيها لك ولا له ولا لأى انسان فى الدنيا ! » .

وفي هذه اللحظة مرق القطار ، فاهتز الكوخ . وكان القطار مزدحما بركاب سيستقلون باخرة كبيرة من الهافر في الصباح التالي .. ثم لم يلبث السكون أن ساد .

وكانت فلور اول من دخل الكوخ ، فأضاءت مصباحا وضعته على المائدة وهى لا تنطق بحرف . ثم رشقت جاك بنظرة جانبية وانصرفت لاعداد مسلوق الخبازى . فلمـــا دخل مينار قدمت له طبقه في صمت !

ولم تظهر الدهشة على مينار حينما رأى جاك . واكتفى بأن أومأ اليه برأسه محييا . ولما رأى فلور تضع أمام أمها طبق الحســـاء وسمع هذه تطلب ملحا لتضعه فيه صاح بها :

ــ ان الملح الكثير من أسباب مرضك ! لا تضعى ملحا قط فى الطعام فهكذا قال الطبيب !

ولكنها لم تأبه لقوله ، ووضعت ملعقة كبيرة من الملح فى الحساء ، لأنها تعتقد أن الملح يقى من السم !

وبعد العشاء دار الحديث حول الطقس ، ولم يلحظ جاك فى عينى الرجل أى خبث أو اثم ، فأيقن ان عمته واهمة !

ودوى نفير آخر ، فنهضت فلور الى البوابة ، ولم تعد الى البيت بسرعة ، لأنها كانت قد غسلت أوانى الطعام قبل خروجها .. أما مينار فخـــرج ليلقى نظرة أخيرة على خطوط المنطقـة قبل أن ينام ... وما كاد يخرج حتى نظرت زوجته الى جاك وقالت له :

ــ أرأيت ؟ . هل صدقتنى الآن ؟ . هل رأيت عينيه وما فيهما من غدر ؟ ان فمى مر . مر كالحنظل ! انه السم ! . مع انى لم آخذ شيئا من يده . وهذا يدلك على مبلغ مهارته وخداعه . لا نجاة لى اذن ... وخير لى أن اغرق نفسى وانتهى من هذا العــذاب والفزع !

فهدأ جاك روعها ، ثم صحبها الى حجرتها حيث استغرقت على الفور فى النوم . ولما كانت الساعة لم تتجاوز الثامنة فقد خرج جاك الى الحديقة تاركا المصباح موقدا فى المطبخ فوق المائدة !

جريمة فى القطار

كان الهواء بليلا ، يؤذن بمطر قريب ، وقد انتشرت الغيوم فى صفحة السماء ومن ورائها القمر تنبعث منه اضواؤه الوردية فتغمر الأرض بما يشبه أضواء الشموع . وفى ذلك الضوء استطاع جاك أن يتبين معالم التلال والأشجار من حوله ، فدار حول حديقة الخضروات ، ثم عول على الاتجاه الى « دوانفيل » فالطريق اليها يكاد ينبسط على استواء واحد ، وقد اجتذبه منظر بيت القاضي جرانموران الذى يقع فى الجانب الآخر من الخط الحديدى .

وكان يعرف البيت جيدا ، لأنه ما من مرة عبر الطريق بقاطرته الا ونظر اليه ذاهبا أو آيبا ، وقلبه يحدثه بأن ذلك البيت سوف يكون له شان كبير فى حياته ، وكان كلما مر عليه ووقعت عيناه على بابه المغلق ، شعر بشىء من الارتياح أول الأمر ، كأنما كان يخشى ان يجد الباب قد زايل مكانه المعهود ، ثم سرعان ما يشعر بعد ذلك بأثر غامض لعدم الارتياح !

وكان كل ما يعلمه عن هذا البيت انه مملوك للمسيو جرانموران القاضى ، وقد شعر فى هذه المرة برغبة قوية فى استطلاع أمره ، والتعرف عن كثب الى كامن سره ، فمكث برهة واقفا خارج السور على الطريق ، يمد عنقه ويتطاول ليرى من وراء الجدار ما بداخل الحديقة وليتمثل حجم البيت . وكان مرور الخط الحديدى فى هذا الموضع لم يدع من حديقة البيت الأصلية الا مساحة قليلة امامه يحيط بها ذلك السور المتوسط الارتفاع . أما من الخلف فكانت هناك حقول لا يفصلها عن حديقة البيت الا سور من النباتات المتسلقة .

وفى ضياء القمر المنبعث من بين أستار الغمام ، بدا البيت موحشا

قابضا للقلب ، فانتابت جاك رعدة ، وهم بأن ينصرف ، غير ان فتحة فى السور لفتت نظره ، وكأنما هى تحد لاقدامه ، فاخترق هذه الفتحة بقلب واجف ، وفيما هو يجتاز مخزن الخضر المهجور ، بدا لعينيه شبح يتسلل بالقرب من الباب ، وشد ما كانت دهشته اذ عرف فى ذلك الشبح بنت عمته فلور فقال لها :

ـ أنت هنا ؟ ما الذى جاء بك ؟

فتراجعت فلور مأخوذة كذلك ، ثم استردت رباطة جأشها وقالت بهدوء :

ـ جئت آخذ بعض الخشب للحريق . فقد تركوا اكوام الخشب هنا تفسد وتتعفن ونحن فى حاجة اليها للوقود .

ثم تناولت مقصا قطعت به رباطة حزمة من الخشب الرطب ، فسألها :

ـ الا يأتى رب البيت الى هنا ؟

ـ كلا ! . لم يأت منذ أن ماتت شقيقتى « لويزت » . نعم ان ذلك القاضى العجوز لم يجرؤ قط على الظهور بعدها فى موفراس .

وأطلقت ضحكة صفراء ثم قالت : « ولهذا يحق لى أن آخذ من خشبه ما أشاء ! » .

فسكت برهة وقد آلمه ذكر تلك المأساة . ثم سألها :

ـ أتصدقين ما قيل عن قصة « لويزت » معه ؟ اتعتقدين انه اغتصبها فأصيبت بتمزق داخلى وهى تقـــاوم اعتداءه البهيمى بالقوة ؟

فماتت على فم فلور ضحكتها الصـــفراء وقالت فى شىء من العنف :

ـ لم تكذب لويزت فى حياتها قط ! . وكذلك كابوش صديقى الحميم .. انه لا يعرف الـكذب أيضا !

فسألها : « أهو صديق فقط ، أم اكثر من ذلك ؟ » .

فقالت : « أنا لست من ذلك الطراز من الفتيات ! . لم يكن

لى عشيق قط حتى الآن ، وليس فى نيتى ان اتخذ لى عشيقا ما حييت ! » .

ثم شمخت براسها القوى ، بينما شعرها الذهبى الغزير يتهدل فوق جبهتها فزاد بذلك ارتفاع قامتها المرنة . وكان الناس فى المنطقة يتحدثون بأساطير عن قوتها البدنية ، وكيف استطاعت ان تجر عربة محملة بالحجارة فتبعدها عن طريق القطار ! . وكيف استطاعت مرة أخرى أن توقف جوادا جامحا بعربة فارغة وهو ينحدر على تل « بارتتان » متجها نحو طريق القطار ! . وكانت قوتها الخارقة مدعاة لرغبة الرجال فيها ، وطالما حسبوا أن الوصول اليهـا سهل ، لأن الفضيلة ترتبط فى ذهنهم بالخوف والضعف ، فما للقوية وللعفة ؟ أليست تتجول فى الحقول وحدها بالليل والنهـار كلما واتتها الفرصة ؟ . وهل لا يراها الناس مستلقية على الأرض بغير غطاء وقد سرحت ببصرها فى السماء ؟

على أنها كانت كلما جرؤ أحدهم على محاولة تطبيق هذه الفكرة عملا ، سرعان ما ترده الى صـوابه . ومن ذلك ان عادتهـا جرت على الاستحمام عارية تماما فى جدول قريب . وعرف ذلك بعض الشبان والغلمان فذهب بضعة منهم ذات مرة ليلتصصوا عليها ويختلسوا النظر الى قامتها الفارعة وهى تستحم . وما كادت تشعر بوجودهم حتى خرجت من الماء عارية كما ولدتها أمها ، وجرت وراءهم حتى قبضت على واحد منهم من قفاه وجعلت ترفعـه وتضرب به الأرض يمينا وشمالا . حتى اذا ارتمى على الأرض ضربته بغصن شجرة علقة موجعة على عجيزته ثم عادت لتستأنف استحمامها وكأنها لم تفعل شيئا ! . ومن ذلك اليوم لم يجرؤ أحد على مغازلتها من قريب أو بعيد !

ويروون أيضا حكاية ملاحظ التحويلة على الخط الحديدى فيما وراء النفق . وهو شاب فى نحو الثلاثين من عمره يدعى أوزيل كانت تميل اليه بعض الميل فظن ذات يوم أنها تغريه بنفسها ، وانتهز

فرصة انفراده بها وهم بهـــا ، فضربته على راسه بعصا غليظة تستخدم فى التحويلة ، وتركته ملقى على الأرض أقرب الى الموت منه الى الحياة !

ومن هذه الحادثة ومثيلاتها عرف الناس ان فلور فتـــاة عذراء متوحشة تكره الجنس الآخر ، وقر فى أنفسهم انها مختلة العقل بعض الاختلال لا تؤمن لها بادرة ولا تطيب لها معاشرة . فلما قالت لجاك انها لا عشيق لها ، ولا أرب لها فى عشيق عابثها بقوله :

– وماذا عن « أوزيل » عامل التحويل ؟ ألست عازمة على الزواج منه ! لقد سمعت انك تجتازين النفق كل يوم لتزوريه !

فهزت كتفيها وقالت : « ان اجتياز النفق رياضة لطيفة . وهناك المخاطرة بالحياة اذا لم تفتح عينيك جيدا ، ثم صوت هدير القطار وهو يتردد فى جوانب النفق عندما يمرق بجوارك تماما ... ولكن أوزيل نفسه ثقيل الظل ممل ، وليس بالرجل الذى يروق لى أو يناسبنى ! » .

– اذن .. هل هناك سواه أقرب الى قلبك ؟

– ماذا عساى أقول ؟ . كلا ! . ليس هناك اى احد ممن تظن .

ثم ضحكت ضحكة عصبية ، وضربت كومة الخشب بقدمهـــا لتدارى اضطرابها وفجأة سألته من غير أن ترفع راسها :

– وماذا عنك أنت ؟ . ألست عاشقا ؟

وجاء دور جاك لـكى يعدل عن الهذر الى الجد ، فأشاح بوجهه وقال : « كلا ! » .

– يقال انك لا أرب لك فى النسـاء ! . وانا اعرفك من قديم ، وأعهدك لم توجه الى أى فتاة لفتة أو كلمة ثناء ! . فهل صحيح انك تحب قاطرتك ؟ لقد كثر التندر بهذا . ويقولون انك لا شغل لك الا تلميعها ، وانك تداعبها كما لو كانت فتاة تبادلها الحب ؟!

فنظر اليها فى ضوء القمر ، وتذكر كيف كانت وهى صغيرة تحيط عنقه بذراعيهـا كلمـــا عاد من المدرســة الى البيت . فلمـــا

كبرت وقل حضوره الى البيت بحكم العمل لم تغير عادتها تلك فى الترحيب به فكان يضطرب ويعجب لذلك البريق الذى يبدو فى عينيها الزرقاوين الكبيرتان ! وها هى قد صارت الآن امرأة ناضجة الانوثة فى ذروة فتنتها . والشعور القوى يخامره بأنها أضمرت له الحب منذ كانت طفلة . ودله قلبه على انه الرجل الذى تنتظره ، فصعد الدم الى رأسه ، ونازعته نفسه الى الفرار !! . ثم أخذ يسائل نفسه : لماذا تساوره الرغبة فى الفرار كلما جمعته الظروف بامرأة مشتهاة ؟ ولماذا تحمر عندئذ عيناه ويكاد يجن جنونه ؟ . ولم يجد عند نفسه جوابا شافيا ، فهم بالنهوض فجأة ، وسألته هى :

ـ « لماذا وقفت فجأة هكذا ؟! » وطلبت اليه أن يجلس ، ولكنه تردد ثم تخاذلت ساقاه وجلس الى جوارها ، وقد جف حلقه حتى لم يستطع أن ينطق بحرف . أما هى فانطلقت تثرثر قائلة :

ـ ان غلطة أمى انها تزوجت من مينار . فما من شك ان العاقبة ستسوء وقد تكررت على سمعى شكاواها حتى مللت هذا الحديث ولم أعد ألقى اليه بالا ثم انه لا حيلة لى فى المسألة . وكلما حاولت أن أتدخل بينهما لاصلاح ذات البين صرفتنى الى فراشى لتنفرد بالتصرف . فلا سلوى لى الا النزهة خارج الدار ، حيث أترك لنفسى العنان فأحلم بالمستقبل كما يتراءى لى . وقد رايتك هذا الصباح وانت تعبر الطريق بقاطرتك ، وكنت كامنة فى أجمة من الشجر ، ولكنك لم تلتفت يمنة ولا يسرة . وسيأتى يوم أحدثك فيه حديث أحلامى التى أحلمها منفردة بنفسى فى الخلاء ، وتحت جنح الليل . ولكن ليس الآن ، بل فيما بعد عندما تزيد صداقتنا وثوقا !

وتناول يديها فى صمت ، فتركتهما فى يديه . ولم تسحبهما الا حين رفعهما الى شفتيه الملتهبتين . وظهر عليها الخوف والدهشة ، فان رجولته أيقظت فيها العداء القديم للجنس الآخر ، فقالت له :

ـ كلا ! . دعنى اذهب . أو الزم الهدوء ولنتحدث . اليس فى وسعكم معاشر الرجال ان تفكروا فى شىء آخر ؟ . آه لو علمت ما قالته لى لويزت قبل وفاتها ! على اننى فى الواقع أعرف عن القاضى اشياء كثيرة ، فقد رايته بعينى راسى مع فتيات صغيرات اخريات منذ سنوات . واحدهن لا يمكن أن تخطر لك ببال مهما ذهبت بك الظنون ، وقد أفلح فى تزويجها من شخص لا يخامره الشك !

غير أن جاك لم يسمع ما قالت ، لانه كان فى شغل عن ذلك باحتوائها بين ذراعيه وسحق شفتيها بشفتيه ، فاطلقت صرخة مكتومة كشفت بعمقها وحنانها عن نوازعها القوية التى طال بهـا القمع والكبت فتراكمت فى سريرتها تحت طلاء من الجفوة والصرامة والغلظة . وبدأت تقاومه مقاومة من تتمنى فى الوقت نفسه لو انها غلبت فى نهاية الشوط على امرها . وهكذا راحا وقد التصق صدراهما يتصارعان فى صمت وكل منهما يجتهد ان يطرح الآخر ارضا ، وبدا فى أول الأمر انها أقوى منه ، ولكنها سرعان ما غلبت على امرها وكفت عن المقاومة !

ووقف هو ينظر اليها فى روعة وخيال ، ثم دارت عيناه فى أرجاء المكان تفتشان عن اى اداة تصلح لقتلها ! فلمح المقص الذى كان فى يدها ملقى على الأرض ، فتناوله على نية طعنهـا به فيما بين ثدييها . وعندئذ ثاب اليه عقله فألقـاه من يده وأسرع بالفرار لا يلوى على شىء ! . فظنت فلور وهى مستلقية فوق الأرض مغمضة العينين أن مقاومتها الأولى له هى التى أغضبته منها ، فتركها على حالها هذا وانصرف عنها .

***

وظل يعدو فى الخلاء صاعدا التل ، ثم هابطا الى بطن الوادى ، بينما وقع اقدامه على الحصى يثير أعصابه . الى ان وجد نفسه فى هضبة منعزلة ، فاخترقها حتى وجد نفسه مرة أخرى عند سور الخط الحديدى !

ومرق فى هذه اللحظة قطار من امامه وهو فى اشد حالات انهياج فجعل يعدو على غير هدى مبتعدا على الخط ثم عائدا اليه فى دوائر مفرغة ، الى أن تخاذلت ساقاه فوقع على الأرض ودفن وجهه فى العشب البليل ، واخذ فى البكاء !

ترى هل عاوده داؤه القديم ، كلمـــا اشتهى امراة ورأى نحرها العارى تحولت شهوته الى رغبـــة قـــوية فى طعنها بآلة حادة لينتشى برؤية دمها يتدفق من بدنها !

اجل . لقد أراد أن يقتلها !

ورنت تلك الكلمات الفظيعة فى اذنيه كما طالما رنت فيهما منذ بلغ الحلم كلما نازعته غريزته الى امتلاك امراة . ففي الوقت الذى كان فيه اترابه من المراهقين لا هم لهم الا البحث عن المراة للحب ، كان هو يبحث عن المراة ايضا ولكن لا ليحبها وتحبه ، بل لـــكى يقتلها ويشبع رغبته الشاذة فى تفجير الدماء من جسدها !

وآلمه أن تلك الرغبة ما زالت تنازعه ، فأخذ يفرس أصابعه فى التراب ، ويعض الأرض بأسنانه وهو ينتحب !

كان يغالب نفسه ويحاول ان يفهم سره الذى جعل منه شخصا يختلف عن سائر البشر الذين يعرفهم بغريزته الفطرية .. نعم ان أخاه كلود الأكبر كان رساما غير متزن ذا نزوات ، ولكن افتقار الأسرة الى الاتزان والسواء لا يفسر هذا النوع من الشذوذ . ثم ان صحته الجسمية من أحسن ما يكون . وهو ليس مولعا بالخمر ، لأن الخمر كما علمته التجربة تدفع به الى الجنون أو الى ما يشبه الجنون .

وقد عرف بالسماع أن أجداده كانوا سكيرين ، فيرجع أنه يدفع بشذوذه ثمن افراطهم رغم اعتداله ، ففى أعماقه يكمن مجرم قاتل يتحين الفرص التى يفلت فيها زمام نفسه من يد عقله واتزانه كى يضرب ضربته !

ورفع جاك نفســه على مرفقيه ، وراح يتأمل مدخل النفق القريب منه ويحاول تنسيق خواطره . وأيقن أن فلور لو بدت أمامه فى هذه

اللحظة لما استطاع منع نفسه من قتلها . ثم تذكر أول مرة حدث له مثل ذلك !

كان فى السادسة عشرة حينذاك ، وكانت الفتاة تصغره بعامين ، وجعل يعابثها وهما فى حقل الى أن وقعت على الأرض ، فغلى الدم فى عروقه وارتمى فوقها ثم جعل يضربها بوحشية وهى تصرخ ، الى ان تمكنت من الهرب منه !

وفى السنة التالية جعل يشحذ سكينا ليطعن به عنق فتاة صغيرة شقراء كانت تمر بالدار كل صباح . وكانت ذا عنق أحمر بض . وتحت أذنها خال فاتن !

وفى هذه اللحظة مر قطار الى جواره مندفعا كالقذيفة الى جوف النفق . فتذكر قاطرته المحبوبة وما يجده بين أحضانها من سعادة صافية . لقد صدق الناس فالقاطرة هى معشوقته التى لا تدانيها لديه معشوقة . وعشقه هذا هو الذى جعله يترقى فى أربع سنوات من الخدمة الى مهندس سائق من الدرجة الاولى بمرتب يبلغ بعلاوة العمل الاضافى أربعة آلاف فرنك ذهبا فى السنة ، فليس له وراء عمله الحالى طموح !

ان زملاءه ومرءوسيه من مهندسى الطبقات الثانية والثالثة والمهندسين تحت التمرين قد أسرعوا كلهم بالزواج من فتيات عاملات رقيقات الحال ، لا تقع عليهن العين الا فى أقبح الثياب وهن حاملات سلال الطعام الى أزواجهن . فى حين يطمح زملاؤه من مهندسى الدرجة الاولى الى وظائف نظار المحطات والزواج من نساء الطبقة الوسطى اللواتى يرتدين القبعات آية على سمو مكانتهن . ولكنه هو لا يريد فراق قاطرته ، ولا ارب له فى نظارة المحطة ، ولا فى نساء الطبقة الوسطى أو غير الطبقة الوسطى . لا بالزواج ولا بغير الزواج !

وطالما سخر منه أصحابه لاستقامته وعزوفه عن الخمر والنساء ، واستسلامه لحالات الكآبة بين الحين والحين . فحجرته المفروشة

فى شارع « كاردينيه » اشبه بصوامع الرهبان ، يقضى فيهـــا اوقات فراغه منفردا نائما على بطنه أو شاردا فى احـــلام يقظته الـكئيبة !

وحاول جاك بعد ذلك ان ينهض على قدميه . فمـاذا يصنع بين الأعشاب فى هذه الليلة الشتائية الرطبة . والصمت سائد حوله ؟ .. لابد ان الساعة قاربت التاسعة ، فخير ما يصنعه ان يعود الى الكوخ فيأوي الى فراشه !

وتصور نفسه راقـدا فـوق مرتبة التبن ولا يفصله عن مضجع فلور الا جدار رقيق من الخشب بحيث يصل صوت تنفسها الى اذنيه . وهو يعلم انهـــا لا تغلق باب مخدعها . ويعلم أن نفسـه ستراوده على الذهاب اليها . وتمثلها وقد استغرقت في النعاس ، وسرت الحرارة فى جسدها الناضر فاستولت عليه الرعدة ، وارتمى على الأرض مرة اخرى ينشج بالبكاء ، وقد سيطر القاتل الـكامن فى أعماقه عليه . انه لو عاد الآن الى الـكوخ لقتلها ولا محالة . واذا أعوزه السلاح فلن يحجم عن قتلها بيديه خنقا ! . فخير من ذلك اذن ... ان يبقى بعيدا طول الليل !

وقفز واقفا ، ثم اخذ يجرى على غير هدى فى الخلاء الحالك ، كانه فريسة تطاردها كلاب الصيد ! .. وظل نصف ساعة مرتقيا وهابطا ، يمينا تارة ، ويسارا تارة اخرى ! فليس يعنيه أين يصير ، وانمـــا الذى يعنيه أن يمعن في البعد عن ذلك المصير !

وشيئا فشيئا هدأت ثائرته ، ووجد نفسه مرة أخرى فـوق النفق ، فتراجع الى أن صار عند مدخله فى الموضع الذى كان راقدا عنده ينتحب من قبل .

وفيما هو واقف يستجمع جأشه ، سمع هدير القطار خارجا من النفق . انه القطار السريع الذى غادر باريس فى السادسة والدقيقة الثلاثين متجها الى الهافر . لقد طالما قاد ذلك القطار ، ولذلك كان يعرف انه يمر فى هذه البقعة فى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين !

واضاء فم النفق كالتنور المتوهج . ثم اندفعت القاطرة ومصباحها يهتك حجاب الظلمة وينير القضبان ، ومن وراء القاطرة رتل العربات وقد اضاءت نوافذها فظهرت بداخلها أشباح الركاب !

وبحكم تعوده سرعة النظر بمقتضى المهنة ، لمح فى جزء من الثانية فى بعض الدواوين رجلا يأخذ بخناق رجل آخر جالس ثم يغرس سكينا فى عنقه ! ولمح شبحا ثالثا ، ربما كان شخصا أو حقيبة جاثما فوق ساقى الضحية . ثم ابتعد ذلك المنظر مع القطار فى اتجاه « موفراس » . وظل جاك يتابع القطار بنظره وقد سمرت قدماه فى الأرض . وخامره الشك لحظة فى حقيقة ما رأى . فلعل ما رآه فى القطار ليس الا انعكاسا لهواجسه الشخصية .

وتجول جاك برهة أخرى والأحلام المختلطة تعربد فى رأسه ، الى أن هدأت برودة الليل حرارة أعصابه فعاد الى موفراس . ولما وجد نفسه أمام الكوخ صمم على عدم الدخول وعزم على النوم تحت عريشة من الخشب ملحقة به . ولكنه لمح نورا ينبعث من تحت الباب فدفعه ليرى منظرا عجبا !

كان مينار قد نقل قدر الزبد من مكانها ، وجثا على الارض والمصباح الى جواره وراح يدق على الجدران بأصابعه !

وكأنما نبهه فتح الباب ، فجلس فى مكانه ، ولم يظهر عليه اقل اضطراب حين فوجىء بدخول جاك ، وقال له :

ـ لقد سقطت بعض عيدان الثقاب فجثوت اجمعها ! . وكنت قد عدت لآخذ مصباحى لاننى رأيت وانا عائد الى الدار منذ لحظات رجلا صريعا فوق القضبان خيل الى انه فارق الحياة !

وكان جاك قد ظن أن مينار يبحث عن كنز زوجته كما تتهمه ! . ولكن اشارة هذا الى القتيل فوق القضبان طردت من ذهنه تلك المشكلة العائلية ، وردت الى ذاكرته بكل وضوح صورة الرجل الذى طعن آخر فى مقصورة من مقاصير القطار . واسرع يسأل : « اين هذا الرجل ؟ » .

ـ هناك على بعد خمسمائة خطوة من هنا ! اريد مصباحا لأتأكد مما رأيت . فهل تأتي معى ؟

وفى هذه اللحظة سمع جاك صدمة ثقيلة فوق رأسه فانتفض مذعورا ، لأن أعصابه كانت فى منتهى التوتر ، فقال مينار له :

ـ ليس هذا شيئا . هذه فلور تتمشى فى مخدعها . هل تأتى معى ؟

ـ هيا بنا بسرعة !

ـ قد يكون الرجل من أهل المنطقة ودهمه القطار وهو سائر . أو لعله احد الركاب ألقى بنفسه منتحرا !

ومشى الرجلان بين القضبان ، وقد سبق جاك صاحبه متلهفا . فان منظر الدماء كان يرضى النزعة الاجرامية الخفية فى سريرته . فلما وصل الى تلك الكومة القاتمة من الأشلاء ، وقف يرتعد ، وصرخ فى مينار الذى كان لا يزال على بعد ثلاثين خطوة وفى يده المصباح :

ـ أسرع بحق السماء ! فقد يكون فيه رمق !

فحث مينار الخطا فى غير اضطراب ، ورفع مصباحه فوق الجثة وقال : « لقد قضى امره ! » .

وكان واضحا ان الرجل سقط من القطار ، فهو ملقى على بطنه على بعد قدمين من القضبان ، وقد انفرجت ساقاه ولم تظهر من رأسه الا فردة من الشعر الأبيض الغزير . وذراعه اليسرى تحت جسمه . وعليه معطف فاخر كحلى اللون ، وفى قدميه حذاء ثمين . ولم يمر القطار على جثته ومع هذا كانت حوله بركة من الدماء نزفت من رقبته . فقال مينار :

ـ يبدو أن بعضهم قتله طمعا فى ماله . فلا تلمسه . والا تعرضت للمتاعب بل امكث حارسا عليه حتى أذهب وآتى بناظر محطة « بارنتان » .

ثم وضع المصباح على الأرض وانطلق فى وجهته يمشى على مهل !

ووقف جاك فى مكانه ساكنا يحدق فى جثة الرجل . وبدأ يحسد القاتل الذى واتته الشجاعة على اقتراف هذا القتل ، فى حين يشقى هو بمقاومة هذه الرغبة فى نفسه . ثم استولت عليه الرغبة فى رؤية وجه القتيل وهو منفرد لا يراه أحد . وشعر برغبة خاصة فى أن يرى موضع الطعنة التى تثير أعماقه بنشوة فذة . ولكنه فى الوقت نفسه كان يتملكه الخوف من رؤية الدم ، لأن الرغبة فى القتل عنده كانت تلازمها على الدوام نوبة فزع وخوف . واخيرا حزم أمره وهم بالانحناء على الجثة ، ولكنه سمع حفيفا من ورائه ، فلما التفت راى نفسه وجها لوجه أمام فلور !

كانت قد سمعت حديث مينار معه فى الكوخ ، فعاودها شوقها الى رؤية الحوادث ، وسرعان ما ارتدت ثيابها وخرجت تبحث عن الموضع الذى وقعت فيه الحـــــادثة ، الى أن عثرت على جاك هناك !

ولم يكن يساورها شىء مما يساور جاك من التردد ، فتناولت المصباح باحدى يديها ، وباليد الأخرى قلبت رأس الرجل فانعكس عليها الضوء ، واذا شيخ بارز الأنف ، عيناه الزرقاوان مفتوحتان فى رعب ، وتحت ذقنه جرح غائر يبدو أن السكين قد أدير فى داخله ففرق الجانب الأيمن من الصدر فى الدم ، وظهرت على الجانب الأيسر فى عروة معطفه شارة وسام الشرف الحمراء كأنها نقطة نثرت من دمه اتفاقا . وصاحت فلور :

ــ يا الهى ! . انه الرجل العجوز .. القاضى جرانموران !

ثم تركت رأسه يسقط على الأرض ، وقالت بصوت متحشرج :

ــ لا عبث بأجسام الفتيات الصغيرات بعد اليوم ! . انى لأراهن ان وراء المسألة امراة ! . يا للويزت المسكينة ! . انها والله لنهاية جديرة بهذا الخنزير العجوز !

وساد الصمت لحظة بينهما . فان ما حدث فى أول الليل جعلها تشعر بالحرج ولا تدرى كيف تصالحه وتسترده ! . ثم سمعت

اصوات قوم يقتربون ، فادركت ان زوج أمها جاء بناظر المحطة . وكانت لا تريد أن يبصراها هناك فسألت جاك على عجل : « الا تأتى لتنام فى الكوخ ؟ » . فأجابها فى اقتضاب : « كلا ! » ولكنها عادت تسأله فى همس وتأثر : « لم لا ؟ .. الا تعود ؟ .. الا أراك هناك ؟ » .

ووصل مينار مع ناظر المحطة واثنين من عمالها ، وعرف الجميع صاحب الجثة . وذهب أحد العمال لابلاغ السلطات المختصة فى روان . وأقيمت حراسة على القتيل ريثما تصل النيابة فى الصباح . أما جاك فعول على قضاء الليل فى محطة بارنتان . وفى الطريق حدثته نفسه بأن يدلى للنيابة بما رآه فى القطار . ثم عدل عن ذلك لان السرعة لا تتيح له أن يحدد شخصية القاتل وملامحه ، ولن يستفيد الا أن تلوك الالسنة اسمه فى قضية قتل !

الخطاب المفقود

دقت ساعات الكنائس فى مدينة الهافر معلنة ان الساعة هى الخامسة صباحا ، وكان اليوم يوم أحد ، وهو اليوم التالى لتلك الليلة الرهيبة الحافلة بالأحداث .

وتوجه روبو الى محله ليتسلم نوبته بينما الظلمة لا تزال سائدة ، والريح تهب من البحر . وما زالت مصابيح البترول مضيئة تحت مظلات المحطة ، وقد وقف معاون نوبة الليل يشرف على تكوين القطار الأول الى مدنتيفيييه .. ولكن حجرات الانتظار كانت لا تزال مغلقة الأبواب ، والأرصفة خالية .

وعندما خرج روبو من مسكنه الذى يعلو حجرات الانتظار كانت مدام لبلو زوجة الصراف أول من التقى بها . وكانت واقفة كالتمثال فى البهو الرئيسى الذى تفضى اليه مساكن جميع موظفى المحطة . وقد سلخت أسابيع تقوم الليل لتتجسس على الآنسة جيشون كاتبة الحسابات ، لأنها تشك فى وجود علاقة غرامية بينها وبين السيد « دبادى » ناظر المحطة . ولم تظفر ليلتها هذه بأى حركة مريبة ، فعادت بعد لحظات الى مسكنها وقد خلا تقريرها الى زوجها الا من ملاحظة واحدة ، هى انها ، حين فتح روبو باب مسكنه ، رأت زوجته سيفيرين وقد نهضت وارتدت ملابسها فى هذه الساعة المبكرة جدا ، وهو ما لم يعهد فيها من قبل .

وكانت قد سهرت مع زوجها أمس حتى موعد قطار الحادية عشرة انتظارا لوصول روبو وزوجته من باريس ، للوقوف على نتيجة التحقيق معه هناك فى محادثته مع وكيل المحافظة . ولكن لم يظهر على آل روبو اى أثر يدل على ان أى شىء غير عادى قد حدث لهما !

وارهفت مدام لبلو أذنيها ساعة كاملة بعد ذلك ، فلم تسمع حسا في مسكنهما مما يدل على أنهما ناما على الفور بعد رحلتهما المنهكة في باريس . على ان تبكير سيفيرين على غير عادتهـــا في نهوضها من الفراش وارتداء ثيابها قبل الساعة الخامسة صباحا قد يكون دليلا على ان مكروها وقع لهما . وهكذا توقعت « مدام لبلو » وزوجها أن يسمعا مزيدا من التفاصيل عن آل روبو في ساعات النهار .

ولما وصل روبو الى حيث كان زميله يتسلم منه النوبة ، جعل زميله ــ واسمه « مولان » ــ يتمشى معه برهة وهو يقص عليه ماجرى في المحطة تلك الليلة من حوادث العمل ، بينما روبو يصغي في صمت ، ووجهه هادىء تمام الهدوء ، وان كانت رحلة اليوم السابق قد تركت أثرها المجهـــد في صورة شحوب خفيف ودوائر سوداء تحت عينيه .

فلما اتم مولان كلامه ، نظر اليه روبو كمن يتوقع أن يسمع منه شيئا آخر ، ولكن يبدو أنه لم يكن هنـــاك مزيد بعـــد حادثة سرقة الحقائب في حجرة الانتظـــار وكسر الفرامل في عربة السبنسة . فخفض روبو رأســـه وحـــدق في الأرض تحت قـــدميه وهمســـا يمشيان !

وبلغا في مشيهما مخزنا أودعت فيه العربات المتخلفة عن قطارات اليوم السابق الى ان يحتاج الأمر الى استخدامها ، فرفع روبو عينيه الى عربة للدرجة الأولى رقمها ٢٩٣ ، وعندئذ تذكر مولان شيئا آخر فقال له :

ــ نسيت ان أذكر لك شيئا آخر !

واحتقن وجه روبو . وارهف سمعه بينما استطرد مولان فقال :

ــ نسيت أن أقول لك ان هذه العربة ستبقى هنا فلا تلحقها بقطار السادسة والدقيقة الأربعين كالعادة .

ــ ولكن لماذا ؟

ــ هناك طلب خاص لعربة درجة أولى في قطار الليل ، فاذا لم يتيسر لنا عربة في مدى النهار ، استخدمنا هذه .

ويبدو أن روبو كان يفكر فى شيء آخر ، لأنه انفجر يقول بغضب :

ـ ما اقذر هؤلاء العمال المكلفين بالنظافة ! . ان هذه العربة الفاخرة تبدو كما لو ان قذارة أسبوع كامل قد تراكمت فوقها !

ـ هذا حال العربات التى تصل بعد الحادية عشرة مساء كل ليلة ! فالعمال يغلبهم النعاس . وحدث مرة أن تركوا رجلا نائما الى الصباح ، لأنهم لم يلتفتوا لوجوده عند الكنس !

ثم تثاءب مولان واستأذن فى الانصراف لينام ، ولكنه قال قبل أن يمضى :

ـ آه . نسيت أن اسألك عن قضية وكيل المحافظة !

ـ لقد كانت رحلتى موفقة . وسوى الموضوع على خير وجه !

ـ حسنا ! لا تنس ان تحجز رقم ٢٩٣ . طاب يومك !

***

ولما خلا روبو الى نفسه عاد يمشى على مهل الى جهة القطار الذى ينتظر موعد القيام الى مونتفييه . وكانت أبواب حجرة الانتظار قد فتحت ، وحفلت ببعض الركاب ، وفيهم صيادون معهم كلابهم . وعليه اذن بعد أن يرحل القطار الاول ، أن يستعد لقطار السادسة الا ربعا ، الذاهب الى روان وباريس . ولما كان الموظفون فى هذه الساعة الباكرة قليلى العدد ، فقد وقع معظم العمل على عاتقه ، من اعداد القطار ، وتفتيش عرباته ، ومراجعة التذاكر المنصرفة ، وضبط الحساب . ثم كان عليه أن يفض نزاعا نشب بين أحد الموظفين وثلة من الجنود المسافرين ، الى أن قام قطار السادسة الا ربعا ، فانصرف الى بعض الأعمال المكتبية ، وقد تنفس الصعداء !

ولما دقت الساعة السادسة ، وخلت المحطة من الناس ، خرج ليتمشى قليلا ويتنسم هواء الصباح بعد أن طردت رياح البحر بقية الضباب العالق فى الجو ، فخلع قبعته كى ترطب النسمات جبهته ، وادار عينيه فى المنظر المعهود له كل يوم !

ولما عاد الى مخزن العربات ، وجد العمل يجرى لتكوين قطار السادسة والدقيقة الأربعين . ولاحظ أن العمـــال يهمون بالحاق العربة رقم ٢٩٣ بالقطار ، فصاح ينتهرهم ، ولــكنهم أفهموه انهم يريدون العربة التالية لها ، ولذلك لابد من تحريكها من موضعها ، فهدأ قليلا ، ولكنه جعل يصب لعناته على الشركة !

ودهش العمال ، لأن عهدهم به أنه هادىء لا يسب ولا يثور . ولكنه سرعان ما استرد رباطة جأشه ، وانهمك فى مراقبة العمل بكل جوارحه ، مدققا أمينا كالعادة !

وفى الساعة الثامنة اشرقت طلعة السيد « دبادى » ناظر المحطة فتوجه روبو اليه بوصفه معاونه وقدم له تقريره . وكان هـــذا الناظر رجلا أسمر وسيما أنيقا ، يبدو عليه اليسار ، كما لو كان من رجال الأعمال الثراة . والواقع أنه لم يكن يهتم كثيرا بالمحطة ، وانما هو دائم الذهاب الى الميناء ، فله علاقات تجـــارية مع معظم الربابنة من كل أنحاء العالم .

ووجد روبو البريد فوق مكتب الناظر لم يفضه بعد ، ولمح فوق قمته برقية تسمرت عليها عيناه . ولكن الناظر لم يكن متلهفا على فضها ، بل هش له وسأله عن رحلته الى باريس وما جرى فيها ، فطمأنه روبو الى تسوية الموضوع ، ثم فض الناظر البرقية ولكنه لم ينظر فيها بل ابتسم لروبو وقال له :

– يسرنى أنهم أبقوك معى هنا !

ثم انصرف الى البرقية بعد ذلك ، فنضح العرق على جبين روبو . غير أن البرقية لم يكن فيها الا مسألة عادية من مسائل العمل اليومى ، لأن الناظر ألقى بها جانبا وتناول خطابا آخر ليقرأه بعدم اكتراث ! ..
فاســـتأذن روبو فى الانصراف ، وقادته قدماه الى حيث العربة رقم ٢٩٣ دون أن يدرى ، وما وقع بصره عليها حتى ارتاع ، واتجه وجهة أخرى الى أن نبهه صوت يقول له :

– سعدت صباحا يا سيد روبو ! . هل رأيت زوجتى امس ؟

وكان الرجل هو الوقاد « بيكيه » ، زوج الأم فيكتوار . وكان رجلا يدمن الخمر ولكنه خفيف الروح فى العادة ، فشفع له ذلك فى سوء سلوكه ، كما شفع له أيضا أن القاضى جرانموران يشمله برعايته !

وأجابه روبو قائلا : « طبعا رأيناها ! وتناولنا طعامنا فى مسكنها . وانها لامرأة ممتازة ، تستحق منك رعاية واكراما أكثـر مما تبذلهما لها ! » .

ــ هذا صحيح ، ولكنها تريدنى أن أستمتع بحياتى !

وكان هذا هو الواقع ، فالأم فيكتوار التى تكبره بعامين تدس فى جيبه المال ليتسنى له التمتع بملذاته على هواه . ولم يضايق هذه البدينة أن يخونها زوجها خيانات متكررة . بل أصبح من المقرر بحكم العادة أن تكون له زوجتان : واحدة فى كل طرف من طرفى الخط الذى يعمل فيه ، أى فى باريس وفى الهـــــافر ، حتى لا يقضى ليلته فى الهافر وحيدا بغير أنيس . وكانت الأم فيكتوار تقتر على نفسها حتى يظهر بيكيه بمظهر لائق أمام المرأة الأخرى ، حتى لا تتهمها هذه بأنها تهمل شأن زوجها وهندامه !

ــ ولكنك مع ذلك تعاملها بقسوة لا مبرر لها ! وزوجتى التى تعبد حاضنتها العجوز تريد أن تسلقك بلسانها !

ثم كف عن الكلام اذ رأى « فيلومين سوفانيا » شقيقة رئيسة العمال ، بقامتها الطويلة النحيفة . وكانت عشيقة بيكيه منـــذ عام . وهى لا تزال ناضرة البشرة ، فى الثانية والثلاثين من عمرها ، وان كانت أشبه بالحصان الاسترالى المريض . وهى مشهورة بادمان الخمر ، وبشهوتها الجنسية التى لا يخمد لها أوار . وما من موظف أو عامل بالمحطة أو منتدب للعمل بها ولو يوما الا استضافته فى البيت المضطرب الذى تعيش فيه مع شقيقها وتتركه مثالا للقـذارة والفوضى ، وكم تسببت لأخيها فى متاعب ، وهدد بالفصل بسببها ، ولولا مهارته لفصلوه ! وكان بيكيه يروق لها ، لأنه مثلها مدمن شراب

ولأنه كان مثلها رجلا شهوانيا وكانت سيفيرين لا تطيقها ، وفاء منها لحاضنتها .

واشاحت فيلومين عن روبو فى وقاحة ، ثم انصرفت الى المسكن. ثم سأله بيكيه عن مسألة وكيل المحافظة ، فلما طمأنه الى تسويتها قال له :

ـ ما كان لك أن تخشى شيئا ، ومن ورائك ذلك السند العظيم . وأنت تعرف من أعنى طبعا ، فزوجتى أيضا مدينة له بالشىء الكثير . اما انا فباق هنا فى انتظار سائقى « جاك لانتييه » ريثما يصلحوا قاطرتنا . انت تعرفه طبعا ، فهو من مواطنيك ؟!

ـ طبعا أعرفه ، ولكن معرفة سطحية . ولم أتعرف عليه الا هنا ، لأنه أصغر منى ، ولهذا لم أتعـــرف به فى موطننا الاصلى « بلاسان » . ويقال انه فتى ماهر فى عمله .

وبعد قليل استأذن روبو وانصرف الى عمله ، تاركا بيكيه يزجى الفراغ بالغزل مع عشيقته فيلومين !

***

طرقت فيلومين باب «مدام لبلو » لتزورها ، وقد حملت اليهـــا هدية قوامها بيضتان طازجتان ، ففتحت لها مرحبة . وفى هــذه اللحظة مر بهما روبو لتمضية ربع ساعة على عادته فى مثل هذا الوقت مع زوجته ، وقد حمل فى يده مفتاحه ، فلما فتح بابه لمحت المرأتان فى اللحظة الخاطفة التى انقضت بين انفتح والغلق زوجته سيفيرين جالسة على احد مقاعد المائدة وقد وضعت يديهـــا فى حجرها وبدا الشحوب على وجهها . فتبادلت المرأتان النظرات ، وافضت مدام لبلو الى فيلومين بأنهـــا رأت سيفيرين فى الخامسة صباحا على هذا الحال ، واستنتجت ان روبو عوقب فى مقر الشركة بباريس .

وروت لها فيلومين ما سمعته من تسوية المسألة . ثم قالت :

ـ « لا يمكن أن يكون هذا الموضوع سبب وجوم سيفيرين » .

وسكتت هنيهة ثم تنهدت وقالت :

ـ آه لو استطعنا أن نجليهما !

وكانت العلاقات سيئة بين مدام لبلو وآل روبو لأسباب تتعلق بالمساكن فالمسكن الذى الى اليسار معتم لا يطل الا على السقوف القذرة لمخازن البضائع والقطارات . وهذا المسكن يقطنه آل روبو والآنسة جيشون وبه استراحة لمفتشى القطارات . أما المسكن الآخر الذى يقطنه لبلو والسيد مولان مع السيد دبادى ناظر المحطة فيطل على الميدان . وكان المفروض أن يقطن آل روبو هذا المسكن بوصفه المعاون الآخر للناظر ، ولكن سلفه ترك مسكنه لآل لبلو قبل حضور روبو الى الهافر . ولهذا انقسم سكن الموظفين الى معسكرين متناجزين . وتحالفت الآنسة جيشون مع آل روبو . كما جعلت مدام لبلو تتجسس على الآنسة جيشون لتفضح علاقتها الخفية مع ناظر المحطة ، وحالفت فيلومين للعداوة التى بين هذه وبين سيفيرين . وبهذا تدخلت العوامل الجنسية والعاطفية فى مشكلة سكنية رسمية .

ووقفت المرأتان تتسمعان على باب آل روبو ولكنهما لم تسمعا شيئا .

وفى التاسعة والثلث خرج روبو عائدا الى مكتبه ليشرف على تكوين القطار الذى يقوم بعد خمس وأربعين دقيقة . وبرغم اجتهاده فى الظهور بمظهر هادىء ، كانت أعصابه ثائرة وهو يعطى الاوامر للموظفين والعمال على الرصيف !

لقد تأخر اعلان النبأ فبدأت أعصابه تخونه ، واخيرا اقبل عامل البرق نحوه يجرى لاهثا وسأله :

ـ أين أستطيع أن أجد ناظر المحطة والضابط القضائى ؟ .. ان عندى برقيتين لهما . ولى عشر دقائق ابحث عنهما عبثا !

واستدار اليه روبو وقد استرد زمام نفسه فلم تتحرك فى وجهه عضلة واحدة ، ونظر الى البرقيتين فى يدى الرجل وأدرك من سحنته انهما تحملان النبأ المنتظر ، ثم قال بهدوء :

ــ لقد مضى السيد دبادى فى هذا الاتجاه منذ بضع دقائق . انظر . هذا هو هناك عائدا من مخازن الوقود !

وما كاد ناظر المحطة يتلو برقيته حتى صاح مناديا روبو وقال له :

ــ لقد وقعت حادثة قتل على الخط ! . وهذه برقية من مفتش الحركة فى « روان » .

ــ ماذا تقول ؟ . هل قتل أحد من رجالنا ؟

ــ كلا ! بل مسافر فى ديوان خاص . وقد القيت الجثة من القطار عند الميل الثمانين أمام نفق « مالوناى » . والقتيل أحد مديرى الشركة ، وهو القاضى جرانموران !

فصاح روبو كالمنزعج : « القاضى ؟ . يا الهى ! . ماذا عسى أن تقول زوجتى المسكينة ؟ » .

فتنبه السيد دبادى للموقف وقال :

ــ هذا صحيح ! مسكين ! . لقد كان رجلا عطوفا فيما سمعت . فليذهب أحد السعاة الى قهوة التجارة ليستدعى السيد « كوش » الضابط القضائى ، لاتخاذ ما يلزم من الاجراءات !

ولم تمض خمس دقائق حتى كان السيد « كوش » قد حضر الى المحطة . وهو ضابط متقاعد من ضباط الجيش لا يأخذ عمله الحالى مأخذ الجد . ويقضى معظم وقته فى قهوة التجارة حيث يلعب الورق ليل نهار . وقد ضايقه طبعا أن يستدعوه فى هذه الساعة بسبب تلك المسألة . وباطلاعه على البرقية وجد أنها صادرة اليه للبحث عن العربة رقم ٢٩٣ وهل لا تزال موجودة فى محطة الهافر . وفى حالة وجودها يقوم بتفتيشها تفتيشا دقيقا .

واتضحت للسيد كوش أهمية المسألة فأولاها عنايته . وبادر روبو فطمأنه الى وجود العربة ، فأسرع مع الناظر ومن ورائهم جمع كبير ممن بلغهم النبأ بسرعة من موظفى المحطة .

وعندما وصلوا الى مكان العربة ، قال السيد دبادى :

ــ لابد أن العربة نظفت فى الليلة الماضية . ولو انه وجدت أى آثار للجريمة لأبلغت فى الحال الينا !

فقال السيد كوش وهو يفتح بابها : « هذا ما سنتبينه الآن » . ثم ما كاد يفتح الباب حتى صاح قائلا : « ما هذا ؟ . يبدو كأن احدا قد نحر خنزيرا هنا ! » .

فسرت في الجمع المحتشد غمغمة ذعر ، واشرأبت الاعناق . وقد تجمدت بركة من الدم الأسود على الأرض وعلى المقعد الجلدي . وعندئذ صاح السيد دبادي في غضب شديد :

ـ اين عمال النظافة في نوبة الليل ؟ . أحضروهم فورا .. !

وكان العمال موجودين بين الجمع فتقدموا بمعاذير متلعثمة وتعللوا بضعف الرؤية في الليل ، وبأنهم لم يلاحظوا شيئا غير عادي بالامس . اما السيد كوش فكان منصرفا الى تدوين ملاحظاته مستعينا بالسيد روبو الذي دخل العربة معه . وخطرت للناظر فكرة فقال لروبو :

ـ انك عدت امس في هذا القطار ، فلعلك تستطيع أن تخبرنا بشيء يفيدنا في التحقيق . ألم تلاحظ شيئا غير مالوف اثناء الرحلة ؟

فسكت روبو مقدار ثانيتين او ثلاث ثوان ثم قال :

ـ يسرني أن أساعدكم . وقد كانت زوجتي معي . واذا كانت اقوالي ستسجل في التقرير فاني أحب ان تقرن أقوالها باقوالي !

ورأى السيد كوش ان هذا طلب معقول ، وتطوع بيكيه لاستدعاء مدام روبو . ومضت بضع دقائق في انتظار حضورها . وفي اثناء ذلك كانت فيلومين ومدام لبلو قد وصلتا وجعلتا تتهامسان عندما أقدمت مدام روبو في هندام انيق أثار حنقهما ، وخطوة متعالية اشعلت غيظهما . ولما رأت سيفيرين الدماء خانتهـــا دموعها فقالت فيلومين شامتة :

ـ حق لها أن تبكي ، فقد ذهب سندهما وافل نجمهما !

وبدأ روبو اقواله في مواجهة زوجته :

ـ توجهنا فور وصولنا امس الى باريس لزيارة السيد جرانموران. أليس كذلك يا عزيزتي ؟ . ولابد ان الساعة كانت حوالي الحادية عشرة والربع .

ونظر اليها نظرة ثانية فقالت بانقياد :

ــ اجلْ الحادية عشرة والربع .

ــ وبعد أن تحدثنا معه في أمور شتى صرح لنا بأنه يعتزم الذهاب الى دوانفيل في اليوم التالى لزيارة شقيقته . أليس كذلك ؟

ــ اجل ! . قال انه سيسافر في اليوم التالى !

فرفع الضابط القضائى وجهه عن الكراسة وقال :

ــ اليوم التالى ، ولكنه سافر في الليلة نفسها !

فقالَ روبو له : « مهلا ! . ولكن لما علم أننا سنسافر في قطار الغروب قال انه ربما سافر فيه ايضا اذا قبلت زوجتى تمضية بضعة أيام في ضيافة شقيقته كما فعلت مرتين من قبل . غير أن زوجتى اعتذرت له بأن لديها شغلا كثيرا بالبيت في الوقت الحاضر ، اليس كذلك ؟ » .

ــ اجلْ رفضت أن أذهب !

ــ هذا هو تقريبا كل ما حدث أثناء الزيارة . وكان لطيفا معنا جدا كعادته . فسأل عن أحوالى ثم ودعنا حتى باب مكتبه . أليس كذلك يا عزيزتى ؟

ــ نعم ودعنا حتى الباب !

ــ وغادرنا باريس في السادسة والنصف ، وقبلْ أن نركب القطار تبادلت بضع كلمات مع السيد فاندوب ناظر المحطة . وحسبت اننا سنكون وحدنا في الديوان ، ثم ضايقنى أن اكتشفت وجود امرأة بدينة في الركن . ثم دخل زوجان في اللحظة الأخيرة . والى أن بلغنا محطة روان لم يحدث شيء غير عادى ، ثم تصور دهشتنا لما نزلنا في محطة روان لنتمشى قليلا على الرصيف فرأينا السيد جرانموران في نافذة عربته الخاصة التى تفصلها عن عربتنا ثلاث عربات أو أربع فحييناه وابديت له دهشتى وسرورى فاخبرنى بأنه اضطر للتعجيل بالسفر بناء على برقية تلقاها . ثم صفر القطار فعدنا بسرعة الى ديواننا فوجدناه قد خلا تماما ممن كانوا فيه ، فعلمنا

انهم من اهالى روان وفرحنا بخلو الديوان لنا . وهذا كل ما عندى من معلومات . اليس كذلك يا عزيزتى ؟

ــ هذا كل ما هناك بالضبط !

وسأل الضابط القضائى روبو بعد ذلك :

ــ أواثق انت من انه لم يكن هناك احد سوى السيد جرانموران فى ديوانه الخاص ؟

ــ كل الثقة !

وسرت فى السامعين قشعريرة . فقد ازدادت الجريمة غموضا وتعقيدا . فما دام القاضى كان وحيدا فمن الذى قتله ثم القى به من القطار على بعد ثمانية أميال من محطة روان لا اكثر ؟

وعندئذ استطرد روبو قائلا :

ــ هناك شيء لا شك عندى فيه ، هو ان القطار كان يسير بسرعته العادية ما بين روان وبارنتان . وعلى رصيف محطة بارنتان رايت السيد باسيير ناظرها وصافحته من النافذة .

وطبيعى أن هذا الدليل يقطع ببعد آل روبو عن كل شبهة . فمحطة بارنتان هى أول محطة بعد روان . فلم يكن هناك وقت ينتقلان فيه بين عربة القاضى وعربتهما . وفى هذا رد كاف على كل شك يمكن ان يخامر السامعين . واستطرد الضابط القضائى يسأله :

ــ هل انت على يقين من انك بعد ان ودعت السيد جرانموران فى محطة روان وعدت الى عربتك لم يركب احد فى ديوانه الخاص ؟

ويبدو أن روبو لم يكن قد توقع هذا السؤال فلم يعد جوابه . ولهذا ظهر عليه التردد ونظر الى زوجته ثم قال :

ــ لا اظن هذا . فقد صفر الناظر واخذ الحمالون يغلقون الأبواب . ولم يكد ينفسح لنا الوقت للركوب فى عربتنا الا بمشقة . ثم ان باب ديوانه مكتوب عليه محجوز فلا أتصور ان يقدم احد ...

غير أن اتساع حدقتي زوجته نبهه الى الا يتخذ رايا قاطعا ، فاستدرك قائلا : « الواقع اننى لا ادرى على وجه اليقين . فربما استطاع احد أن يركب فى آخر لحظة بسوء نية . كمـــا أن الرصيف كان مزدحما جدا والاضاءة فى محطـــة روان سيئة أيضا ! » .

وتبادل الناظر والضابط القضائى النظرات فى صمت . وعلت همهمة فى صفوف الجمع المحتشد . فقد انتهى التحقيق الابتدائى الى غير نتيجة قاطعة . وصار مباحا لـكل واحد أن يصرح بنظريته الخاصة . ثم ان أعمال المحطة المعطلة يجب أن تستأنف !

وفى هذه اللحظة لمح بيكيه وهو واقف مع فيلومين ومدام لبلو السائق جاك لانتييه سائق قاطرته وزميله فى جميع الرحلات . وكان جاك قد نزل لفوره من القطار القادم الى الهافر ، فأشار اليه بيكيه لكى يقترب ، فاقترب بعد تردد وسأل عن سبب هذا التجمهر مع أنه كان يعرف السبب مقدما بطبيعة الحال ، وراح يصغى لقصـــة الجريمة مختلطة بتخمينات الواقفين من حوله . ورأى أمامه العربة التى شاهدها فى الليلة الماضية والجريمة تقترف فيهـــا ، ثم وقع بصره على الدماء فأشاح بوجهه ليرى روبو وزوجته . وأخبره بيكيه كيف أدليا بأقوالهما لأنهما كانا آخر مَن رأى القتيل فى محطة روان .

وكان جاك يعرف روبو طبعا بحكم العمـــل . أما زوجته فكان يتحاشاها كدأبه مع سائر النساء . أما وهى واقفة الآن والدموع تنهمر من عينيها على وجهها الشاحب الذى يتوجه شعر فاحم كالليل الحالك ، فلم يجد القدرة على تحويل عينيه عنها . وعجب للظروف الغريبة التى ربطت بينهما وبين الجريمة ، وربطته بالجريمة أيضا ، لأنه شاهد وقوعها اتفاقا . ووجد نفسه يقاطع بيكيه قائلا :

— انى أعرف كل هذا . فقـــد كنت ليلة أمس بالقرب من النفق ورأيت شيئا يحدث عندما مر بى القطار !

فتجمع الناس حول جاك يسألونه . فندم على فلتة لسانه ولكنه

لم يستطع أن يلوذ بالصمت . فهذه هي ســـــيفيرين تخفض يدها بالمنديل عن وجهها وتحملق فيه بعينيها الواسعتين الدامعتين . وهذا هو الضابط القضائي يتجه نحوه ويسأله :

ـ ما هذا الذى تقول ؟ .. ماذا رايت بالضبط ؟

فلم يجد جاك مندوحة عن رواية ما شهده بعينيه . وكان روبو يرمقه مصغيا بانتباه وهو واقف الى جوار زوجته .

وسأل الضابط القضائي جاك :

ـ هل تعرف القاتل لو رأيته ؟

ـ كلا ! ما أظن انى أستطيع معرفته !

ـ هل كان يرتدى ملابس شركة السكة الحديدية ، أم هو مسافر ؟

ـ لست أدرى ! . فقد كان القطار يعدو بسرعة خمسين ميلا !

ـ لا باس ، وسيسمع وكيل النيابة أو قاضى التحقيق أقوالك بالتفصيل فيما بعد !

ثم تفرق الجمع بعد ذلك ، ولم يملك جاك نفسه وهو يحيى سيفيرين منصرفا فأخذ يطل فى عينيها الكبيرتين ليطالع فيهما ذلك المزيج السحرى من الرقة والفزع والضراعة !

***

فى الأسبوع الثانى من شهر مارس ، قام قاضى التحقيق السيد دنييزيه باستدعاء أهم الشهود فى مقتل القاضى جرانموران الى مكتبه فى دار القضاء بمدينة روان .

وكانت قد انقضت ثلاثة أسابيع على تناول الصحف انباء الجريمة، فباريس كلها مهتمة بهذا الحادث الغامض ، لما للقاضى من مكانة ، وبسبب صلته الوثيقـــة بالامبراطور نابليون الثالث . ولا سيما أن الانتخابات الجديدة كانت على الأبواب ، فباتت تلك القضية موضوعا من موضوعات المعركة الانتخابية المحتــــدمة ، وتناقلت الألسنة المعادية فضائح منسوبة الى الفقيد ، لتجريح الامبراطور وحزبه ! .
وقيل ان فى المسألة سرا نسائيا ، وعرضا مثلوما ، وانتقاما !

وكان السيد دنييزيه مدركا حقيقة الموقف . وكان رجلا طموحا ، وقد لبث زمنا طويلا يترقب قضية هامة تبرز اسمه ويظهر فيهـــا كفايته كى يظهر بالترقية والشهرة اللتين يستحقهما — فى نظر نفسه على الأقل — بعد أن طال به انتظارهما الى سن الخمسين ، كما طال شوقه الى أن ينقل الى باريس ، حلمه القديم !

ولا شك انه بدأ التحقيق بحماسة شديدة للبحث عن الحقيقة . ثم غلبه التعقل ، وآثر الانتظار حتى يرى أين تتجه الريح فى بحر السياسة ، فيميل مع التيار ، ويكيف التحقيق التكييف الذى يحقق مصلحته وطموحه ، لا العدالة المجـــردة التى لا يطلبها الا البلهاء !

وقد نصح له بعض خاصته بأن يذهب قبل استئناف التحقيق الى باريس ليقابل ولاة الأمور هناك ، ولا سيما السيد لاموت القاضى السابق ، ومن كبار رجال وزارة العدل ، وأحد زملاء القتيل فى الدراسة والقضاء ، وصديقه الحميم الذى يعرف أسراره كلها . وبهذه المقابلة يستطيع أن يستكشف الاتجاه الذى يجدر به أن يسلكه فى التحقيق ، ويستلهم منه الوحى ، ويساوم من تحت ستار على على الترقية المنشودة !

وتمت المقابلة فى دار السيد لاموت ، وروى الرجل للمحقق وجهة نظره ، ونصح له بالمباقة حتى تصان سمعة الفقيد ومكانته القضائية والاجتماعية من رشاش الأقاويل . فأدرك المحقق ان عليه ان يلزم جانب الحذر والتريث ، ولا يكشف من الحقائق الا ما هو مرغوب فى الكشف عنه ، والا يتخذ خطوة فى التحقيق الا بعد استشارة السيد لاموت واستلهام وحيه !

وخامرت الريب فى أن السيد لاموت قد كلف عمـــلاءه السريين باستجلاء الحقيقة بحذافيرها ، كى يتمكن من اخفاء معالمها عنـــد اللزوم ، وتضليل التحقيق الرسمى ، ولكن ضجة الصحف حملته حملا على استئناف التحقيق ، أو على الأقل التظاهر بذلك ، الى حين صدور أوامر أخرى من وزارة العدل !

وكان عليه أن يقرر الافراج عن بضعة من المشبوهين الذين قبض عليهم غداة الحادث . كما أن فتح وصية جرانموران قوى نسبة الشك فى آل روبو . اذ تضمنت تلك الوصية منح سيفيرين بيت ضيعة موفراس .. فكانت تلك المنحة بمثابة حافز محتمل لجريمة لم يظهر حافز واضح للاقدام عليها ! . ولكن ذلك الظن على كل حال لا دليل عليه !

وأدى سماع أقوال مينار الى سرد قصة وفاة لويزت بعد اغتصاب جرانموران لها بالقوة . والتجائها الى كوخ صديقهـــا كابوش فى الغابة ! .. فوجد المحقق فى تلك القصة عناصر بارزة تصلح دوافع نموذجية للقتل . ولا سيما أن الحجار كابوش كان قد سمع مرارا يتوعد بقتل جرانموران انتقاما للصغيرة لويزت . وعلى هذا أمر بالقبض عليه ، ثم قام بتفتيش كوخه فى جوف الغابة ، فعثر على سروال ملطخ بالدماء . وهو اليوم قد أرسل فى استدعاء ثلاثة من الشهود كان قد استجوبهم من قبل غداة وقوع الجريمة !

ويقع مكتب قاضى التحقيق فى مدينة روان فى الطابق الأرضى من دار القضاء بها . والحجرة الوسطى من حجرات ذلك المكتب معتمة فى النهار وتضاء بالبترول . وقد طليت جدرانها بورق أخضر باهت. ويتكون أثاثها من أربعة مقاعد عادية ، ومقعدين مريحين ، ومكتب قاضى التحقيق ، ومكتب صغير لكاتبه . ومن وراء المكتب باب يفضى الى حجرة أخرى يخفى فيها القاضى فى بعض الاحيان بعض شهوده ليفاجىء بهم المتهمين أو الشهود الآخرين ! . اما مدخل الحجرة الرئيسى فمن بهو به ارائك خشبية تستخدم بمثابة قاعة للانتظار .

وقد دعى روبو وزوجته لمقابلة المحقق فى الساعة الثانية ، الا انهما حضرا قبل الموعد بنصف ساعة ، بعد وجبة سريعة فى بعض المطاعم بالشارع الاكبر . وقد ارتدى كلاهمـــا السواد ، وارتسمت الـكآبة والأسى على وجهيهما ، كمـــا ينبغى لزوجين شابين فقـــدا منذ أمد قريب عزيزا عليهما . وجلست سيفيرين على الاريكة . اما

زوجها فراح يتمشى ويداه معقودتان وراء ظهره . وكلما التقت عيناهما ظهر على نظراتهما القـــلق المكتوم . فلئن كان الميراث قد حقق رجاءهما ، الا أنه حمل لهمـا القلق والخوف . فقد شملت الوصية هبات ممـاثلة لنساء مجهولات فى بلدان متفرقة ، والمفهوم انهن عشيقات سابقات ، أو ثمرات غرام . ففكرت ابنته فى الطعن فى صحة الوصية . ومالت بايعاز من زوجها لالقاء الشبهات على صديقة طفولتها سيفيرين .

وهناك مسألة اخرى تقلق بال روبو . هى الخطاب الذى أرغم زوجته على كتابته لتدعو جرانموران للسفر . فاذا لم يكن قد أعدم ذلك الخطاب فهو قرينة ضد زوجته ، برغم أنه غفل من التوقيع . ولكن مما طمانه أن الخطاب لم يظهر له أثر فى التحقيق حتى الآن . ومع هذا فكل استدعاء لمقــــابلة المحقق كان يوقظ ذلك الخوف ويجعلهما يتصببان عرقا ، وان كانا يتمـاسكان ويحسنان التظـاهر بالهدوء ورباطة الجاش !

وفى الساعة الثانية دخل البهو جاك لانتييه الذى استدعى من باريس ، فخف روبو لمقابلته باسطا يده مرحبا فى حرارة :

ــ أراهم قد أزعجوك أنت أيضا ! . يبدو أن هذا الموضوع المؤسف لن ينتهى أبدا لــ .

وكان جاك قد وقف ماخوذا عندما وقع نظـره على سيفيرين . ولاحظ انه كلما وصل الى الهافر فى الأسابيع الثلاثة الماضية كان روبو يحرص على التلطف معه والتودد اليه . ودعاه ذات مرة بالحاح لتناول الغداء فى مسكنه . وهنـــاك أثارت سيفيرين عواطفه بالتقرب اليه تقربا ينذر بالخطر . فهل تراها قد كتب عليها أن تلهب شهوته الاجرامية فى الحب والقتل ؟ ان يديه تتحرقان ، وقلبه يقفز فى صدره ، كلما وقعت عيناه على عنقها الأبيض البض ! . وكم أهاب بنفسه أن يتحاشاها ولكن لا حيلة له فى الظروف التى تجمعه بها قسرا . فلم يجد بدا من تحيتها ، فنظرت اليه باسمة ابتسامتها

الحيية المعهودة . وشعر بنظرات الزوجين تخترقه كأنهما يستشفان ما يدور فى أعماق سريرته . وخشى أن يستشفا ذلك فعلا . خشية أن يعرفا رغبته الخفية !

والواقع أنهما لم يفكرا فى شىء مما فكر فيه ، وانما قلقهما مصدره أن تكون ذاكرته قد تنبهت فيتعرف على شخص القـــاتل ويشى بهما الى المحقق فهو الشاهد الوحيد الذى يخشيانه ، وهذا سر لهفتهما على اجتذابه وتوثيق صلتهما به حتى لا يجسر على فضح امرهما . ولهذا سأله روبو :

ــ هل لديك فكرة عن سبب استدعائنا اليوم ؟ . وهل هنـــاك جديد ؟

ــ لم أسمع شيئا !

وفى هذه اللحظة سمع الثلاثة وقع أقدام ، وهمست سيفرين قائلة :

ــ وها هى برت وزوجها !

ودخل لاشيناى وزوجته ، فلم يعيراهما التفاتا ، ثم ادخلهمـــا الحاجب فورا الى حجرة قاضى التحقيق . فقال روبو لزوجته :

ــ علينا أن نتذرع بالصبر . فقد ننتظر دورنا ســـاعتين على الأقل .

ثم جلس على يسارها ، واشار الى جاك بالجلوس عن يمينهـــا فجلس وهو يشعر بكل جارحة فيه تختلج بالرغبة العميقة المؤلمة ولا سيما حين سرت اليه حرارة جسدها !

وكان المحقق قد استمع الى أقوال السيد فاندورب ناظر محطـة باريس ، وقد شهد بما يؤيد أقوال روبو من حديثه معه قبيل قيام القطار . ثم قرر ان القاضى جرانموران وصل فى آخر دقيقة متخفيا فلم يفطن اليه أحد من المسافرين . وكان روبو قد ركب مع زوجته منذ دقائق فى ديوان بالدرجة الأولى . وأكد أن القاضى كان وحده فى ديوانه المحجوز عندما غادر القطار المحطة !

واستمع المحقق ايضا الى اقوال السائق هنرى دوفرنى فيما يتعلق بالدقائق العشر التى وقفها القطار فى محطة روان . فقرر انه شاهد روبو وزوجته يتحدثان الى القاضى امام ديوانه ، ورجح انهما عادا الى عربتهما قبل اقفال أبواب القطار . كما قرر ان اشتداد الزحام على الرصيف ورداءة الاضاءة تجعل الجزم غير مستطاع بأن أحدا لم يركب فى ديوان القاضى بعد تحرك القطار !

ولم يغفل القاضى المحقق سؤال موظفين آخرين فى محطة روان فلم تخرج أقوالهم عن هذا المعنى !

واستمع القاضى بعد ذلك لشهادة السيد بسيير ناظر محطة بارنتان فشهد انه صافح روبو من نافذة ديوانه . وانه وزوجته كانا وحدهما فى الديوان عندئذ ، وكانت هى مستلقية أو مستسلمة للنعاس فيما يظهر !

وبحث القاضى عن الركاب الثلاثة الذين نزلوا من الديوان فى محطة روان فتمكن من العثور على الزوجين البدينين اللذين ركبا فى آخر لحظة . ولكنهما قررا أنهما كانا نائمين طول الوقت . أما المرأة الثالثة فلم يعثر لها على أثر . كما بذلت جهود متشعبة لاستقصاء الركاب الذين نزلوا فى محطة بارنتان . فأمكن التحقق من أشخاصهم فيما عدا واحدا لم يعرفه موظفو المحطة شخصيا ، ولكنهم وصفوه بأنه كان مرتديا ملابس العمال ويحيط راسه بمنديل ازرق !

وأما تقرير الطبيب الشرعى فلم يكن فيه ما يستحق الاهتمام الا ثلاثة عناصر مقطوع بها .

وأول هذه العناصر هو فقد الساعة الذهبية والسلسلة وحافظة نقود مفروض انها كانت تحتوى على عشرة آلاف فرنك من أوراق النقد على الأقل ، اذ شهدت مدام بونهون شقيقة القتيل بأنها كانت تتوقع أن يحملها اليها . فمن الجائز ان تكون السرقة من دوافع الجريمة . ولكن يقابل هذا الغرض أن الخاتم الماسى الكبير لم يفقد

وليس فى الامكان العثور على اثر الأوراق المالية . اما الساعة فتحمل اسم القاضى ورقم المصنع وهو ٢٥١٦ .

والعنصر الثانى ، ان الخنجر الذى استخدم فى القتل لم يعثر عليه برغم المحاولات الجبارة التى بذلت للبحث عنه فى منطقة الجريمة وبين الأعشاب والصخور .

أما العنصر الثالث فهو ان البطانية التى كان القتيل يغطى بها ساقيه وجدت ملقاة من القطار ملوثة بالدم على بعد مئة خطوة تقريبا قبل محطة بارنتان .

ولما دخل السيد لاشيناى وزوجته مكتب القاضى المحقق ، اسرع يرحب بهما ويدعوهما للجلوس فى المقعدين المريحين . فالزوج على حداثة سنه وصل الى رتبة مستشار بفضل نفوذ حميه ووالده القاضى السابق !

وبعد هذا الترحيب قال القاضى للسيدة لاشيناى :

ـ أرجو أن تغفرى لى يا سيدتى ازعاجك مرة أخرى بصدد هذه القضية المحزنة . ولكنى واثق بأنك لا تقلين عنى شوقا للكشف عن حقيقة المجرم وانفاذ حكم العدالة فيه !

ثم أشار الى كاتبه الضخم الجثة ايذانا بافتتاح التحقيق رسميا .

سلاح سرى

ما كاد القاضى المحقق يوجه اسئلته الى السيدة برت حتى انبرى السيد دى لاشيناى زوجها الشاب يجيب بدلا منها ، فحمل حملة شعواء على الوصية وعلى ما ورد فيها من هبات تكاد تستغرق نصف الثروة ، وهى لغسالات وبائعات زهور على الأرصفة فى مدن مختلفة بباريس والأقاليم . وقد شدد حملته خاصة على روبو وزوجته ، وكان يصرف بأسنانه غيظا وهو يتحدث عنهما . فعجب القاضى المحقق من ذلك الشاب الذى لم يكفه أن يرث أكثر من مليونين من حميه ، عدا ثروة والده المنتظرة ، فراح يثير المشاكل من أجل هبات صغيرة متفرقة لقوم فقراء . ولم تجد محاولات المحقق لتهدئته بل استرسل قائلا :

— ما كنت لأدع آل روبو يظفرون ببيت ضيعة موفراس ! . تصور هدية كهذه لابنة بستانى سابق ؟ . ثم انه توجد صلة بينهما وبين الجريمة !

— أتعتقد حقا انهما مذنبان ؟

— اذا اتضح انهما على علم بنصوص الوصية تكون لهما مصلحة فى التعجيل بموته . فموقفهما تحيط به الشكوك !

وسأل القاضى المحقق السيدة برت : « هل صديقة طفولتك يمكن أن تقدم على مثل هذه الجريمة البشعة ؟ » .

فنظرت برت الى زوجها قبل ان تجيب ولم تتردد لارضائه فى ان تقول :

— الحقيقة انها كانت على شىء من سوء الخلق منذ نعـــــومة اظفارها !

– اتعنين انها كانت تخلّ بالآداب فى دوانفيل ؟

– كلا ! فما كان أبى ليتهاون فى مثل ذلك ، وانما أعنى انها كانت طائشة . وكثيرا ما اقدمت على أشياء لم اكن لاصدق صدورها عنها !

– فلنحكم العقل يا سيدتى ! أتظنين ان مثل هذين الزوجين يقدمان على قتل رجل مثل ابيك ، لا لشىء الا الظفر بذلك الميراث قبل الأوان ؟ .. ولا سيما انه ليس تحت يدنا ما يدل على جشعهما أو تعجلهما . ووقائع القضية وشهادات الشهود فى جانب استحالة قيامهما بالجريمة . ولم يكن فى مصلحتهما قتل الرجل الذى يحميهما ويضمن الترقية للزوج ، بل ان والدك قدم له خدمة فى ذلك اليوم بالذات فحماه من العقاب ! . هذا فرض يفتقر الى اثبات . والأقرب الى العقل أن نتصور رجلا تعلق بالقطار وهو يغادر محطة روان ثم تسلل الى الديوان فاقترف الجريمة وتسلل من القطار فى المحطة التالية وهى محطة بارنتان . وخصوصا انه ترددت فى المدة الأخيرة تهديدات بقتل الفقيد من رجل معين .

وفى هذه اللحظة فتح الباب ، ودخلت سيدة شقراء فى ثياب حداد غاية فى الأناقة . ومع انها جاوزت الخمسين من عمرها بمراحل ، الا أنها لم تزل على جانب كبير من الجمال ، وكانت هذه السيدة هى شقيقة الفقيد مدام دى بونهون الواسعة الثراء . فخف القاضى المحقق لاستقبالها باحترام ، وتبادل واياها التحية . فقد كان القاضى مثل سائر أهل المناصب العالية فى المدينة من ضيوف قصرها بصفة دائمة فى بلدة دوانفيل التى تبعد ثمانية أميال عن روان .

وكان القاضى قد انتهى من أقوال آل لاشيناى ولكنه لم يصرفهما بل اتجه الى مدام بونهون قائلا :

– اذا سمحت لى يا سيدتى فسوف اوجه اليك بضعة اسئلة . لقد جاء فى التحقيق ذكر برقية بعثت بها لاستدعاء شقيقك الى

دوانفيل . ولكننا لم نعثر لها على أثر . فهل الواقعة صحيحة ؟

— كلا ! . لم أرسل اليه برقية ، ولكنى كنت اتوقع قدومه كعادته بغير اخطار سابق ، والغالب أن يكون فى قطار المساء . وفى هذه المرة كنت أتوقع أن يأتينى بعشرة آلاف فرنك كان مدينا لى بها . ولابد انه كان يحملها معه . ولذلك قلت منذ البداية انه قتل بقصد السرقة !

وسكت القاضى برهة ثم سألها فجأة :

— ما رأيك فى مدام روبو وزوجها ؟

فهزت رأسها سلبا ثم قالت بعتاب : « ما اظنك يا عزيزى السيد دنييزيه تريد أن تسير فى هذا الاتجاه الخاطىء . فقد كانت سيفيرين على الدوام فتاة صغيرة حلوة الشمائل ، شديدة الجاذبية . واذا سألتنى رأيى مرة أخرى ، فانى أكرر على مسامعك اننى لا أصدق انها هى أو زوجها يمكن أن يقترفا أى جرم ! » .

ورمق المحقق آل لاشيناى بنظرة شماتة ، فصاحت برت قائلة :

— انك يا عمتى لا تزنين الأمر بميزان دقيق !

— لا بأس ! . ان ذنبها انها فتاة تفيض حيوية وتحب الضحك والمرح . ولست ألومها . وانى أعلم انك وزوجك تحقدان عليهما للأسباب المالية الخاصة بالميراث . مع أن الطبيعى أن يترك لها شيئا وقد كفلها ودفع لها صداق الزواج ، وكان يعتبرها ابنته . ولو علمت يا ابنتى الى أى حد يهون المال فى ميزان السعادة لما عنيت نفسك بالطمع فيه الى هذا الحد !

فقال زوجها مدافعا عن وجهة نظر برت ووجهة نظره :

— ان روبو هو الذى ذكر تلك البرقيـة . وما دامت البرقيـة لا وجود لها فلا يمكن أن يكون المرحوم قد ذكر له شيئا عنها . فما الذى جعل روبو يلقى هذه الأكذوبة ؟

فقال القاضى المحقق : « ولعل المرحوم اخترع هذه البرقية ليبرر تغيير موعد سفره ، وقد يكون ذلك التغيير لسبب سرى لا يريد

التصريح به ولا نعلمه نحن حتى الآن . فهذا الدليل لا قيمة له ولا يثبت شيئا ! » .

وساد الصمت برهة ثم تنحنح القاضي وقال :

ـ والآن يا سيدى سأتناول موضوعا شائكا ، واستميحك العفو مقدما لما قد يكون فى أسئلتى من فظاظة . مع احترامى الشديد لذكرى شقيقك المرحوم ، هناك اشاعات معينة . ويزعمون انه كانت للمرحوم علاقات بنساء !

وسارعت مدام بونهون الى الاجابة قائلة : « يا صديقى العزيز ! . ان أخى ترمل وهو فى ميعة الشباب . وما كان لى أن أضيق عليه أو أرى غضاضة فى تمتعه بملاذ الحياة . فكان يعيش على هواه ولا أتدخل فى شئونه . وكل ما أعرفه انه كان حريصا على كرامة مركزه » .

ـ لا تؤاخذينى . فلابد من الالحاح فى هذا الموضوع . ألم تحدث متاعب بخصوص وصيفة صغيرة فى دوانفيل ؟

ـ تعنى لويزت ؟ . . ولكن هذه الداعرة الصغيرة كانت لها علاقات قبل أخى برجل من أرباب السوابق منذ كانت فى الرابعة عشرة . وكان هذا الموضوع مجرد محاولة لابتزاز أموال أخى بالتهديد والتشنيع !

والحقيقة أن مدام بونهون كانت أعلم الناس بحقيقة أخيها وفساد سيرته . ولكنها رأت من واجبها أن تدفع عن سمة الأسرة هذه الوصمة . وهى لم تكن تنزهه عن الرغبة فى نيل هذه الفتاة ، ولكنها كانت تعتقد حقا أنها لم تكن عذراء . ولهذا استرسلت فى حديثها قائلة للقاضى :

ـ تصور فتاة صغيرة كأنها خلقت من القشدة والخوخ ، لطيفة كالملائكة ، حلوة طيبة كالقديسين . ومع هذا كانت منذ الرابعة عشرة خليلة لعملاق يدعى كابوش قضى خمس سنوات فى السجن لجريمة ضرب أفضى الى موت ! . ويعيش كالضوارى فى غابة بيفور فى كوخ

منعزل . ويرتزق من قطع الأحجار بقوته البدنية الهائلة . وهو مرهوب يتجنبه جميع النـــاس . ولولا لويزت لمـا كانت له صلة بانسان . وكثيرا ما شوهدا يجوبان الغابة متشابكين الأيدى فلفتـا الأنظـــار لما بينهما من فرق جسيم . فهى دقيقة التكوين كالدمية وهو ضخم بشع الخلقة كالوحوش . ولم أعرف هذه الحقائق بطبيعة الحال الا فيما بعد . فانى حين استخدمتها كنت أظن بها الطهـارة والسذاجة ، وشجعنى على استخدامها سوء حال والديها . ولمـا كان بيت أخى فى ضيعة موفراس خاليا من الخدم فقد درجت على ارسال لويزت مع امراة أخرى للقيام بخدمته مدة اقامته هناك . وفى ذات صباح اختفت الفتاة . وفى اليوم التالى سمعنا أنها ماتت وسمعنا الحكاية المزعومة عن اغتصاب أخى اياها . ولست أزعم أن أخى لم يعابثها . فقد كان مولعا بالصغيرات . وربما قبل وجنتيها مثلا ، أو قبل شفتيها !

وهنا قالت برت وزوجها فى صوت واحد ينم على الاستنكار :

ـ « كيف تجسرين يا عمتى على هذا الكلام ؟ » .

فواصلت كلامها قائلة : « لا ضير على أخى من ذلك ! لقد كان بطبعه ميالا الى الغزل ، وهذا ليس سرا . وانما لا يمكن أن يزعم انسان أنه ينحدر الى ذلك التعذيب الوحشى . وربما تكون الفتاة قد اخترعت هذه القصة لتلهب عواطف عشيقها فصدقها . فقد جن جنون الرجل بعد وفاتها وراح يطوف بالمقاهى والحانات مؤكدا أنه لو وقع أخى فى يده لذبحه كالخنزير ! » .

ـ هل قال ذلك حقا ؟ . وهل هناك شهود ؟

ـ هناك شهود لا يحصى عددهم ! . ولحسن الحظ أن مكانة أخى حمته من هذه الفضيحة فماتت الاشاعة فى مهدها !

وبعد ذلك ختم القاضى محضر أقوالها ، وودعها الى الباب هى وآل لاشيناى حتى اذا خـــلا الى نفســــه تمطى واستغرق فى التفكير . ثم انبسطت أساريره كمن عثر على بارقة نجاح . ورجح عنده أن القاتل هو ذلك الحجار كابوش .

وقال لحاجبه بعد أن استقر فى مقعده : « ادخل جاك لانتييه » .

وكان روبو وزوجته جالسين فى ركود وصمت الى أن ايقظهما صوت الكاتب ينادى جاك فتبعاه بأعينهما الى أن دخل المكتب ، ثم عادا الى الصمت والانتظار .

وكان جاك قد سلخ الأسابيع الثلاثة الأخيرة يفكر فى تلك القضية العجيبة ، ويخشى أن تنقلب ضده . وكان هذا من أعجب الأعاجيب حقا لأنه لم يكن يثقل ضميره من هذه الجهة شىء . ومع ذلك دخل مكتب المحقق وفرائصه ترتعد كأنه يخشى أن تتضح ادانته . وعول على أن يلزم الحيطة واليقظة حتى لا يأخذه المحقق بأسئلته على غرة فيقول مالا يريد أن يصرح به !

ومن الواضح ان القاتل الكامن فى أعماقه كان يخشى على نفسه من الافتضاح ، ويربط بين مصيره ومصير القاتل فى تلك القضية التى يحققونها . وارهق ذلك الحذر أعصابه فلم يكن ينام فى تلك الأسابيع نوما مريحا !

والسبب فى دعوته هذه المرة ان السيد دنييزيه كان يريد منه أقصى وصف فى استطاعته للقاتل . فقد كان هو شاهد الرؤية الوحيد لمنظر القتل . وكان المحقق لا يزال يأمل أن يستخرج منه معلومات أدق وأوفى . غير أن جاك لم يزد حرفا على ما قرره من قبل . فالمنظر مرق من أمام عينيه فى جزء من الثانية . والأثر الذى تركه فى ذاكرته لا يمكن الا أن يكون مشوشا مقتضبا ، ولا يخرج من العموم الى التحديد . فكل ما يجزم به انه رأى شـــــخص يقتل آخر طعنا بسكين !

وظل المحقق نصف ساعة يكرر عليه السؤال نفسه فى صـــور مختلفة . ولكنه لم يعرف منه ان كان القاتل قصيرا أم طويلا ؟ . وهل كان طويل الشعر أم قصير ؟ .. وهل كان حليقا أم ملتحيا ؟ . وأى نوع من الملابس يرتدى ؟ والى أى طبقة من المجتمع بدا لك أنه ينتمى ؟ .

فلم يكن جاك يجيب عن هذه الأسئلة الا باجابات غامضة .!

واخيرا سأله السيد دنييزيه :

ـ هل تعتقد انك يمكن أن تعرف الرجل لو عرض عليك ؟

وتحت وقع نظرات المحقق الثاقبة اختلج جفنا جاك وقال :

ـ ربما ! ولكنى لا أظن ذلك . ولا أستطيع أن أقسى .

ـ اذن اجلس .

ورن الجرس فاستدعى الحاجب .

ـ ادخل آل روبو .

وما دخل روبو وزوجته حتى اتجهت نظراتهما الى جاك فى تردد وتساؤل : ترى هل تكلم ؟ . وهل تتم هذه المواجهة للمطابقة بين أقواله وأقوالهما ؟

والواقع ان بقاءه فى الحجرة زعزع ثقتهما ، ولهذا كانت اجابتهما عن الأسئلة الأولى ثقيلة بلهاء . غير أن المحقق كان فى الواقع يكرر أسئلته السابقة التى سبق ان وجهها اليهما فى أول استجواب . ولم يكن عليهما سوى تكرار الاجابات التى سبق لهما أن أدليا بها . وكان المحقق يصغى وعيناه الى الأرض . ثم رفع راسه فجأة وقال لسيفيرين :

ـ أمامى يا سيدتى تقرير الضابط القضائى فى محطة الهافر . وقد ورد فى هذا التقرير انك رأيت رجلا يدخل ديوان القاضى جرانموران بعد أن أخذ القطار فى مغادرة محطة روان .

وبهتت سيفيرين ونظرت الى زوجها تستنجد به فلم يخذلها بل قال :

ـ لا أعتقد يا سيدى ان زوجتى أدلت بشىء فى هذا الموضوع بهذا الشكل القاطع !

ـ انها فى الحقيقة رجحت ذلك . فلماذا هذا الترجيح ؟

وسكتت سيفيرين لا تدرى ماذا تقول . ولكن لم يكن فى وسعها على كل حال أن تظل صامتة الى الأبد . فقالت :

ـ لم يكن عندى اساس يعتد به . وانما المسألة استنتاجيه باعتبار ان هذا هو الفرض الوحيد المعقول !

ـ اذن انت لم تلمحى احدا فعلا .

ـ كلا يا سيدى !

ـ وانت يا سيد روبو .. كيف فاتك أن ترى أحدا يصعد الى ديوان القاضى مع انك ذكرت ان الصفارة دوت وانت تتحدث معه ؟

ـ الواقع يا سيدى اننى لم أر شيئا .

ـ مما يؤسف له ان ذاكرتك ضعيفة الى هذا الحد ، والا لساعدتنا كثيرا فى الوصول الى الحقيقة !

ـ المسألة يا سيدى مسألة ذمة . ولا يمكن ان تلومنى على ترددى فى الجزم باشياء لست متاكدا منها . واذا قلت لك اننى لمحت احدا بشكل غامض على بعد وفى الاضاءة السيئة .

فتحمس المحقق وحملق فيه وجعل يستحثه قائلا :

ـ تكلم يا رجل هل كان طويلا أم قصيرا ؟ .. فى مثل طولك ؟

ـ كلا ! بل أطول منى كثيرا ! . أو على الأقل كان هذا شعورى فى تلك اللحظة !

ـ مهلا لحظة ! . وانت يا مسيو جاك : هل كان الرجل الذى رايته يطعن القاضى أطول من السيد روبو ؟

ـ فليقف السيد روبو .

ووقف روبو فادهش جاك ان يلاحظ لأول مرة انه قصير متين البنية وله منظر جانبى لا يدرى أين رآه من قبل . ثم غمغم :

ـ كلا ! . لم يكن أطول منه . بل فى مثل حجمه تقريبا !

ـ كلا يا عزيزى جاك . بل أطول منى بمقدار الراس على الأقل !

ـ اذن أنتما غير متفقين فى وصف الرجل . وربما كان السيد جاك يصف الرجل بالقصر لأنه رآه وهو منحن على فريسته !

وجعل المحقق ينظر اليهما نظرات فاحصة وهو يشعر أن نظريته فى القاء التهمة على « كابوش » قد تبخرت فى الهواء . فهل يا ترى تصدق نظرية آل لاشيناى ؟ . وهل يكون هذا الموظف المثالى وزوجته الحلوة الطيبة مذنبين ؟

ثم سأل روبو : « هل كان الرجل الذى رأيته ذا لحية كاملة مثل لحيتك ؟ » .

فواتت روبو الشجاعة واجاب بغير تردد أو اضطراب : « لحية كاملة ؟ . كلا ! كان حليقا لا لحية له مطلقا ! » .

واستعد جاك للاجابة . فقد توقع ان يوجه السؤال عينه اليه . ولم يدر بماذا يجيب لأنه كان مستعدا أن يقسم أن الرجل كان ملتحيا. وعول على أن يقول الحقيقة . ولكن عندما حول عينيه من وجه روبو التقتا بعينى سيفيرين فقرأ فيهما ضراعة وتزلفا ! . فمشت الرجفة فى كيانه . فهل تراها المرأة التى يمكن أن يحبها دون أن تثير فى نفسه شهوة قتلها ؟

وبحركة غريبة من حركات الوجدان وجد ذاكرته تخونه ، ووجد نفسه يقرر للمحقق ان الرجل الذى رآه كان حليقا . أو هو على الأقل غير متأكد من هذه النقطة بسبب سرعة القطار . غير ان المحقق ألح عليه ان يصف له الرجل وصفا دقيقا ، فلم يدل الا بأوصاف مبهمة . فلما طلب الى روبو أن يصف رجله ألصق به عكس أوصافه الشخصية . وأخيرا قال المحقق للرجلين والمرأة بعد أن وقعوا على أقوالهم وهو يدخلهم من الباب الخلفى فى الحجرة الداخلية :

— انتظروا هنا الى أن أدعوكم !

ثم أمر حاجبه باحضار السجين ، وقد بدا الاستبشار على محياه وزادا اعتقاده ان ذلك السجين هو المجرم الحقيقى !

وأدخل الحراس رجلا ضخم القامة ، فيما بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر . وليس فى وجهه من مخايل الذكاء شىء وانما هو حيوان ضار أثار جنونه الأسر . ورمقه المحقق بنظرة صامتة ، ثم سأله بهدوء :

ـ أتدرى ما هى تهمتك ؟

ـ لم يخبرنى أحد ! . ولكنى اعرف بالطبع لأن الحديث فى هذا الموضوع كثير متواتر على الألسنة !

ـ وهل كنت تعرف القاضى جرانموران ؟

ـ أجل ! عرفته أتم معرفة .

ـ ان فتاة تدعى لويزت كانت عشيقتك . ودخلت خدمة مدام بونهون بمثابة وصيفة . أليس كذلك ؟

فاستشاط العملاق غضبا وصاح :

ـ لى الله ! . هذه اكذوبة دنيئة ! . فما كانت لويزت عشيقتى مطلقا !

ـ انت رجل حاد الطبع ! . الم تمكث فى السجن خمس سنوات بتهمة القتل ؟

فخفض « كابوش » راسه فى خزى وقال بسذاجة : « لقــــد ضربنى هو اولا ! . ولم أمكث فى السجن الا اربع سنوات ثم افرجوا عنى لحسن سلوكى ! » .

ـ انت اذن تنفى ان لويزت كانت عشيقتك ؟

فجمع « كابوش » قبضتيه فى غيظ ، ثم غالب نفسه وقال بصوت مختلج :

ـ لقد كانت طفلة فى الرابعــــة عشرة عندما عدت من الليمان . وتجنبنى جميع النـــاس . واحسبهم كانوا يرجموننى لو واتتهم الجرأة . اما هى فكانت تقبل نحوى فى غير خوف وتتحدث الى . وكانت بنية صغيرة لطيفة كالزهرة . فكانت انيسى الوحيد ، أتمشى معها فى الغابة ويدها الصغيرة فى يدى . فكنا خير صديقين فى الدنيا ، وكانت تلك أسعد أيامى . ثم ترعرعت الطفلة واستولت على جميع مشاعرى فأحببتها حب الجنون . ولست انكر هذا . واحبتنى هى ايضا . وكان من الممكن أن تصل الامور بيننا الى ما ذهبت اليه فى ظنونك . لولا أن أسرتها ابعدتها عنى بأن الحقتها بخدمة

تلك السيدة في دوانفيل . الى ان كانت ليلة عدت فيها من المحجر لأجدها عند باب كوخي نصف مجنونة . وجسدها يلتهب بحرارة الحمى ! . انها لم تجرؤ أن تتوجه الى بيت زوجها ، فجاءت لتلفظ انفاسها الأخيرة في كوخي .. يا الهي ! لقد كنت حريا أن أقتل ذلك الخنزير العجوز في تلك الليلة عينها !

وعض قاضي التحقيق على شفتيه ، وقد هزته لهجة الرجل الصادقة ، وادرك انه ازاء خصم لا يستهان به ، فقال له :

ـ أجل أعرف تلك الحكاية البشعة التي لفقتهـــا بالاتفاق مع الفتاة . ولكن تذكر أن تاريخ السيد جرانموران يسمو به فوق الشبهات !

فتوهجت عيناه وارتعدت يداه وقال :

ـ ما الذي لفقناه معا ؟ . موتها ؟ . أهكذا يكذب الآخرون ونتهم نحن بالكذب ؟

ـ لا تحاول أن تخدعني وتتصنع البراءة معي ! . لقد استجوب مينار زوج أم عشيقتك . وسأواجهك به اذا لزم الأمر فتسمع رأيه في قصتك . واعلم ان عندنا شهودا على كل شيء ، فخير لك أن تقول الحقيقة . ألست قد أعلنت على الملأ انك ستذبح السيد جرانموران ذبح الخنزير ؟

ـ لقد أعلنت هذا فعلا ! وعنيته . وكانت أصابعي تأكلني أيضا لخنقه !

ـ وماذا كنت تصنع في ليلة ١٤ و ١٥ فبراير ؟

ـ ذهبت الى فراشي مبكرا ، حوالي الساعة السادسة ، لأني شعرت بوعكة وتولى ابن عمي لويس قيادة العربة المحملة بدلا مني حتى دوانفيل .

ـ أجل شوهد ابن عمك عند البوابة . ولكنه يقول انه لم يرك منذ الظهر فعليك أن تثبت أنك كنت في فراشك منذ السادسة !

ـ لا أستطيع اثبات ذلك لأني أعيش بمفردي في الغابة . ولكني صادق !

ـ اذن ساخبرك انا كيف قضيت هذا الوقت .. في السادسة بعد الظهر ركبت القطار من بارنتان الى روان . ثم عدت في القطار القادم من باريس ، والذي يقف في روان في الســــاعة التاسعة والدقيقة الثالثة . وكنت واقفا على المحطة عندما شاهدت السيد جرانموران في ديوانه الخاص . ولاحظ انني لا اتهمك بالتربص له : فانك لم تكن تعرف نبأ قدومه . واوافق على انك لم تفكر في قتله الا بوحي اللحظة . وفي ضجة قيام القطــــار دخلت الديوان . ثم اقترفت الجريمة وقذفت بالجثة ، ومن ورائها الغطاء . ثم غادرت القطار في محطة بارنتان !

وكان المحقق يرقب وجه كابوش وهو يتكلم . فغاظه عندما بدا القصة ان ينفجر كابوش مقهقها ثم يقول :

ـ لو انني قتلته لبادرت بالاعتراف . فاني والله كنت اتمنى ان افعل هذه الفعلة . ولكني للأسف لست صاحبها !

ـ اتنكر اذن كل شيء ؟

ـ طبعا ما دمت لم اصنع شيئا . وكان يسرني ويزهيني لو انني كنت الفاعل ، ويسرني ان اجاهر بذلك !

وفجأة وقف القاضي ففتح الباب الخلفي وجذب جاك لانتييه من يده وسأله مشيرا الى كابوش : « اتعرف هذا الرجل ؟ » .

فظهرت الدهشة جلية على وجه جاك وقال : « نعم اعرفه . فكثيرا ما رايته في بيت مينار .. » .

ـ كلا ! . لست اعني هذا . بل اعني هل تعرف فيه القاتل ؟

فتراجع جاك الى الوراء بحذر ، وجعل يحدق في كابوش فخيل اليه ان القاتل اقصر منه واشد سمرة ، ولكنه خشي ان يدلي براي قاطع فقال :

ـ لست ادري يا سيدي . لا استطيع ان اجزم !

وعلى الفور استدعى السيد دنييزيه آل روبو وسألهما :

ـ اتعرفان هذا الرجل ؟

فهز كابوش رأسه باسما لسيفرين في مودة ، فقد عرفهـــا طفلة . اما هما فوقفا جامدين . وأدهش روبو ان تطابق الأوصاف التي سبق ان ادلى بها أوصاف هذا العملاق . وكانت تلك المصادفة مذهلة له فوجم ، الى أن قطع عليه ترديده صوت المحقق : « تكلم ! . هل تعرفه ؟ » .

ـ انني يا سيدى كما قلت لك لم ألمح الرجل الا فى جزء من الثانية ! وهذا الشخص طبعا طويل القامة واشقر ولا لحية له ...

ـ هل تعرفه ؟ . نعم او لا ؟

وتغلبت غريزة المحافظة على البقاء فقال :

ـ لا استطيع ان أقسم ! . ولكن لا شك أن هناك شبها !

فانفجر كابوش يسب ويلعن ويدق المكتب بيده ، الى أن استدعى الحراس، فانصرفوا به . وتبادل الزوجان النظر فى صمت عندما ظهرت امارات الفوز على وجه السيد دنيزيه وصاح : « لقد ظفرنا برجلنا ! » .

وطغى الفرح عليهما ، فتناسيا كل تأنيب للضمير ، وابتسما لجاك ، ووقف الثلاثة متلهفين على اذن القاضي لهم بالانصراف !

وفى هذه اللحظة دخل حارس برسالة للقاضى فشغل عن الشهود وفضها . وكانت هذه هى الرسالة التى ينتظرها من وزارة العدل ، وتتضمن توصية بالتلكؤ فى التحقيق ، فتلاشت نشوة النصر ، ونظر للشهود نظرة جامدة ارتعدت لها فرائص الزوجين . وخطر لهما لأول وهلة ان الشرطة فى باريس عثروا على خطابها الخالى من التوقيع فى بيت القاضى جرانموران وكانت سيفرين قد التقت بالسيد لاموت فى بيت القاضى وتعلم انه قد نيط به ترتيب أوراق الفقيد الخاصة . ولام روبو نفسه لأنه لم يرسل زوجته الى باريس كى تزور ذلك السيد متعللة بطلب حمايته لزوجها فى الشركة خلفا لحماية القاضى ، فانها تخشى ان تفضى أقاويل الناس الى استغناء الشركة عن خدماته . وتسمرت عيناهما على وجه قاضى التحقيق الذى غشته سحابة سوداء . وهكذا يكاد المريب أن يقول خذونى . واخيرا قال المحقق :

— سنرى فيما بعد ماذا نصنع . ويمكنكم الآن أن تنصرفوا !

وبالرغم من الأوامر الصادرة في الخطاب بالتريث ، نازعته نفسه الى استجلاء النقطة الوحيدة التى تتعارض مع ادانة كابوش فاستبقى جاك عند الباب ، وانصرف الزوجان فانتظروا فى البهو ، وقد ذهبت مخاوفهما كل مذهب وتخاذلت ركبتاهما فتهــــــاويا فوق الأريكة الخشبية !

ولم يلبث جاك أن خرج ، فوثبا واقفين وسألاه فى لهفة ، فقال :

— لقد سألنى عن أقوالى ، وما ذكرت منها من اشتباهى فى وجود قاتلين اثنين . وكنت قد قررت وجود شىء على رجلى الضحية ربما كان شخصا أو حقيبة . وهو شخصيا يعتقد أنها البطانية التى كان يغطى بها رجليه . وقد احضرها لأشــاهدها . فقررت ان ذلك جائز جدا !

وارتعد روبو فالمسألة لا تزال متحرجة . وكلمة واحدة من جاك يمكن أن تودى بهما . فهما الآن تحت رحمته . فيجب الا يغيب عن ناظريهما كى يكونا مطمئنين لسلوكه واتجاهاته !

وفى الطريق قال له روبو فجاة : « ان زوجتى ستسافر الى باريس لبعض شأنها فى فرصة قريبة . واكون شاكرا اذا تكرمت بمرافقتها فى جولاتها هناك ! » .

***

فى الساعة الحادية عشرة والربع وصل الى باريس القطــــــار القادم من الهافر . وقبل أن يقف وقوفا تاما قفزت ســيفيرين الى الرصيف ، وكانت فى العربة الأخيرة ، ثم اخذت تعدو مخترقة زحام المسافرين والمستقبلين الى أن بلغت القاطرة . وكان جاك واقفا فيها ليستأنف السير الى المخــزن . اما الوقاد بيكيه فكان واقفا على الرصيف منهمكا فى تلميع بعض الأجزاء النحاسية . فقالت لجاك :

— سأكون عند شارع كاردينيه فى الســاعة الثالثة كى تقدمنى لرئيسك !

وكان روبو قد رتب هذا السفر متعللا برغبة سيفيرين فى تقديم الشكر لرئيس مخزن القاطرات على خدمة تافهة . والغرض الاساسى من الرحلة هو توثيق الصلة بجاك وتقوية سلطانها عليه . أما جاك فلم ينظر الى هذه الرحلة التى ستجمعه بها على انفراد نظرة ارتياح ، لأنه كان مدركا مبلغ اشتهائه لها ويخشى العـــواقب الدامية لذلك الاشتهاء !

وانصرفت سيفيرين خارجة من المحطة ، فسرها أن تجد المطــر قد انقطع ، فتوجهت الى مطعم تعرفه متواضعا وتناولت طعام الغداء ببطء وهى شاردة فى هواجس الاسابيع الماضية ومخاوفها !

ففى الليلة الماضية ، وقد مضى على التحقيق يومان ، أصر روبو على أن تذهب لزيارة لاموت فى مسكنه الخاص بشارع دى روشيه بالقرب من بيت السيد جرانموران . وكانت تعلم انه يكون بالبيت فى الساعة الأولى ، فلا لزوم للسرعة . والوقت متسع أمامها للتفكير فى شئونها المضطربة ، وللتفكير فيما تقوله له والاســــــتعداد لأسئلته .

وكان عليها أن تقرر له انتشار اشاعة مؤداها ان الشركة تفكر فى فصل زوجها لأن الألسن لاكت اسمه لمناسبة قضية جرانموران . وان فجيعتها فى هذا السيد الكريم وفجيعة زوجها لا حد لهما . فقد كان سندهما الوحيد وكم من مرة بسط حمايته على زوجها فى تلك الشركة . فاليه تلجأ كى يكون خير خلف لخير سلف .

والحقيقة ان غرضها الأساسى من تلك الزيارة هو التودد الى ذلك الشخص وجس نبضه لمعرفة هل اكتشف رسالتهـــا الخطيرة الى القتيل ، أو أن القتيل قد اعدمها . فان هذه النقطة هى سبب القلق الذى كاد يفضى بهما الى الجنون ، فلابد من قطع الشك باليقين أيا كانت النتيجة !

وخرجت بعد الغداء تتمشى فى الشمس المشرقة وتفكر فى السيد لاموت . وفى ذلك العدو الآخر جاك الذى عليها ان تجرده من سلاحه فتجعله تحت رحمتها بدلا من أن تكون تحت رحمته !

واستغرقتها هذه الخواطر ، فلم تشعر بمرور الوقت ، الى ان اكتشفت ان الساعة جاوزت الأولى بعشر دقائق ، فأسرعت متجهة الى شارع دى روشيه فمرت فى طريقهـا ببيت القاضى جرانموران الذى تراءى لها واجما مهجورا .

وما أن اقتربت من بيت السيد لاموت حتى اذهلها ان ترى قاضى التحقيق السيد دنييزيه واقفا يطرق الباب فأجفلت واستولى عليها رعب شديد ، فتراجعت بسرعة وجعلت تدور فى الشوارع المحيطة بالبيت وهى ترتجف . فما الذى جاء بالمحقق الى بيت هذا الرجل ؟ . ولا شك ان الرجلين يتداولان الآن فى موضوع القضية . ترى هل استدعى السيد لاموت قاضى التحقيق لأنه عثر على الخطاب الذى كتبته بخط يدها ؟

وعادت مدفوعة بقوة خفية الى شارع دى روشيه كمن تريد أن تنتحر وتعجل بنهاية عذابها . وضغطت الجرس ففتح الباب كبير الخدم وأدخلها الى البهو ثم سألها عن اسمها . ومن خلال باب مفتوح سمعت صوتين يتحدثان . ثم ساد صمت عميق لم تسمع خلاله الا صوت دقات قلبها . وحدثت نفسها بأن السيد لاموت ما زال مجتمعا بقاضى التحقيق ، وانها قد تنتظر وقتا طويلا . بيد أن الساقى عاد بسرعة وقادها الى المـكتب . ولما كان السيد دنييزيه لا يمكن فى تقديرها أن يكون قد فرغ بهذه السرعة من زيارته ، فقد توهمت انه مختبىء وراء باب ليتسقط السمع !

ووجدت رب البيت واقفا وسط الحجرة الفخمة الأثاث بوجهه النحيل وشعره الأشيب وبذلته الانيقة وملامحه الوسيمة . فأخـذت بذلك الجو المهيب. ولا سيما لأنه لم يطلب اليهـا الجلوس بل لم يفتح فمه ملقيا عليها عبء الابتداء بالكلام والافضاء بمهمتها . وبعد برهة صمت تام استردت رباطة جأشها بدفعة من دفعات العزيمة وواجهت الخطر بهدوء قائلة :

— عفوك يا سيدى لتطفلى على كرم أخلاقك ! . فانت تعلم مبلغ

الخسارة التي منيت بها في الأسابيع الاخيرة . وفي حالتي الراهنة المضطربة لا أجد مناصا من التطفل عليك كي تمنحني الحماية والرعاية التي كان يبسطهما على فيما مضى صديقك الكريم الرحيم !

وبهذا ضربت على الوتر الحساس ، وجمعت بين الترفع والتوسل . فلم يسع السيد لاموت الا أن يدعوها للجلوس ، ثم جلس هو شخصيا وسكت منتظرا بقية حديثها ، فأخذت في الافصاح :

ـ عسى أن يذكر سيدى أننا تقابلنا في الأيام الخوالى في دوانفيل حينما كنت ضيفا على صديقك الراحل . فباسم هذا الصديق أتوسل اليك الا تقطع فيض الحنان الذى كان يمدنى به !

وتأثر الرجل ، وتبخرت شكوكه ، وكان قد اكتشف الخطاب واعتقد انه بخطها لأنه كان يعلم نوع العلاقة بينهما . وعندما أعلن الخادم حضورها سبق الى ذهنه أنها جاءت تنشد التجسس على أخبار هذا الخطاب ، فقطع حديثه مع السيد دنييزيه ليستوثق بسرعة . ولكن كيف يصنع بها هذا بعد الذى بدا من لطفها ورقتها . ولذلك طلب اليها أن تفصح عن نوع المساعدة التى تطلبها .

ـ ان زوجى مهدد بفقدان عمله . لأن حساده بسبب جده وامانته والرعاية التى يبسطها عليه الفقيد ، انتهزوا فرصة فقدان هذا السند فلاكوا اسمه لمناسبة هذه القضية المشئومة ، باذلين الجهد لاقصائه عن وظيفته . ولولا جدية الأمر لما لجأت اليك بهذه السرعة . فاستحلفك أن تبادر ببذل نفوذك لدى الشركة كى توطد مركزه !

ـ ولكن لماذا يفصلونه وهو لم يقترف ذنبا ؟

ـ للأسف الشديد يا سيدى أن وصية الفقيد الكريم سببت لنا متاعب والقت علينا ظلال الريب . وربما تعللت الشركة بالرغبة فى أن يكون موظفوها فوق مستوى الشبهات !

وكان منطقها سديدا ولفظها فصيحا وصوتها عذبا . فراقت فى عينيه ، وعذر صديقه الراحل وحسده فى الوقت نفسه على تمتعه وهو أكبر منه سنا بعشر سنوات بكل هذه الملاحة والفتنة والشباب

الناظر . ورأت سيفرين فى وجهه ما ينم على تفكيره ، فعاودتها الثقة بنفسها وتهورت فقالت :

ـ ان أمثالنا يا سيدى لا يقتلون طمعا فى المال ، بل يلزم لنا دافع أفضل من هذا . ومثل هذا الدافع معدوم فى هذه القضية !

ورأى ركبتى فمها يختلجان ! . فأيقن أنها هى ولم يعد عنده أدنى شك فى ذلك . وفهمت من تلاشى ابتسامته أنها قد وشت بنفسها . وخيل اليها انها ستفقد الوعى ولكنها تحاملت على نفسها ، واستأنفت الحديث بصورة طبيعية وبعد دقائق قال لها :

ـ سيدتى ! سأخاطب الشركة اذا وجدت المسألة تستحق الاهتمام . ومن المصادفات ان مدير قسم الحركة سيحضر لزيارتى لمسألة لا صلة لها بك فى هذا العصر . ولكن يجب أن تكون تحت يدى وقائع معينة قبل ان اتكلم وبيانات محددة . فارجو ان تكتبى على هذه الورقة اسم زوجك وعمره ومدة خدمته فى الشركة وما الى ذلك .

وقدم اليها ورقة وقلما ، ثم نظر الى الجهة الأخرى حتى لا تضطرب . فأدركت على الفور هدفه من هذا الطلب . فهو يريد أن يحصل على نموذج من خط يدها ليضاهيه بالرسالة الصغيرة التى عثر عليها غفلا من التوقيع . وجعلت تكد ذهنها بحثا عن مخرج لها من هذه الورطة . ولكن عبثا . ثم ما فائدة هذا ما دام يعلم الحقيقة ؟ . انه يمكنه فى أى لحظة أن يحصل بأى طريقة أخرى على غرضه . فليكن اذن ما يكون . ووقوع البلاء خير من انتظاره !

وهكذا سطرت بغير اضطراب ظاهر البيانات المطلوبة . وبنظرة واحدة القاها على الورقة ادرك السيد لاموت على الفور تطابق الخطين . واعجب فى أعماقه بشجاعة هذه الشابة وقوة أعصابها . ثم قال باسما :

ـ دعى لى هذه البيانات وسأبذل جهدى !

ـ انى شاكرة لك أعظم الشكر ! فهل اعول على انك ستثبت زوجى فى مركزه ومحل عمله ؟

ـ لا استطيع ان اعدك ؟ . ولكنني سأفكر في الموضوع !

والحقيقة انه لم يكن يدرى ماذا يصنع . أما هي فأيقنت ان مصيرها بين يدى هذا الرجل . وزاد كابوس الشك الذى كانت تعانى منه قبل ان تأتى الى هذا البيت . وكان لابد لها أن تعرف بوجه قاطع اتجاه هذا الرجل ، وهل ينقذها أو يقضي عليها . فتوسلت اليه قائلة :

ـ فكر يا سيدى فى مقدار قلقى وجزعى ! . ولن ترضى أن تتركنى امضى من غير أن تريح بالى !

ـ لا استطيع ان اعدك الآن بشيء . فتذرعى بالصبر !

وقادها الى الباب . فتخاذلت ساقاها وهان عليها أن تعترف بكل شيء حتى تسمع منه ماذا ينوى أن يفعل . واسعفها ذهنها بسبب تتعلل به لاطالة الزيارة وجس نبضه ، فالتفت اليه قائلة :

ـ هناك مسألة اخرى نسيت أن اسألك عنها .

ـ ما هى يا سيدتى ؟

ـ بخصوص الوصية . فهل ترى انه ينبغى ان نرفض الهبة التى تضمنتها ؟

ـ ان القانون فى جانبك . والمعول كله على شعورك .

وعند الباب بذلت محاولة أخيرة . فتشبثت بيده فى ضراعة وقالت :

ـ لا تتركنى انصرف هكذا ! قل لى هل هناك بارقة رجاء لى ؟

فجذب يده من يدها ، غير انه لم يستطع مقاومة نظراتها الضارعة التى ألهبت الدماء فى عروقه ، فلان قلبه وقال لها :

ـ عودى اذن فى الساعة الخامسة . فعلى وقتئذ أستطيع أن انبئك بجلية الأمر !

***

وغادرت سيفيرين بيت السيد لاموت واعصابها أشد توترا ، ونفسها أشد اضطرابا ! .. ان موقفها واضح الآن . غير أن قدرها لا يزال

غامضا ، ومصيرها لا يزال معلقا . وفى أى لحظة قد تجد نفسها وقد القى القبض عليها . فكيف اذن تستطيع أن تصبر الى الساعة الخامسة ؟

ان هذه الفترة هى مشكلتها الكبرى العاجلة . وفكرت أولا فى جاك الذى كانت قد نسيته مؤقتا فى زحمة الأحداث الخطيرة ، فهذا شخص آخر يملك القضاء عليها بكلمة تخرج من فمه !

ومع ان الساعة لم تكن قد جاوزت الثانية والنصف ، وموعدها مع جاك هو تمام الثالثة ، أسرعت تخترق شارع دى روشيه فى اتجاه شارع كاردينيه حيث ينبغى أن تلتقى به !

وفى أثناء ذلك ، كان السيد لاموت واقفا أمام مكتبه غارقا فى افكاره . ان له من القوة والنفوذ ما يعدل قوة وزير العدل ونفوذه . وله اتصالات تكاد تكون يومية بقصر التويليرى . وله اصبع فى معظم المسائل الدقيقة الشائكة التى تهتم بها الدولة . فهو لذلك يعرف تمام المعرفة مدى الاهتمـــــام الذى تحظى به قضية جرانموران فى الدوائر العليا . ومدى الاستياء الذى ساد تلك الدوائر بسببها . والصحف المعارضة لا تزال تستغلها للحملة على الحكومة . ولم تتردد فى اتهام البوليس بأن المراقبة السياسية قد شغلته عن مراقبـة المجرمين ومطاردة القتلة والسفاكين . وهناك صحف أخرى نبشت حياة القتيل الخاصة وربطت بينها وبين التبذل والفساد الخلقى الذى يسود الحياة الخاصة للبلاط الامبراطورى . ولهذا طلب من السيد لاموت أن يعمل بكل الوسائل على حفظ هذه القضية لا التوسع فيها . وخوله وزير العدل السلطة الكاملة فى هذا الصدد . ولهذا وقف يزن المسألة فى تحرج شديد ، لأن أى خطأ فى التصرف ستحيق به عواقبه !

وكان لا يزال مشغولا بهذه الخواطر حين فتح الباب الداخلى الذى كان السيد دنييزيه ينتظر وراءه فى الحجرة المجاورة . وكان دنييزيه قد سمع كل ما قالته سيفيرين ولذلك بادر يقول :

ــ لقد قلت لك منذ البداية : انه لا مبرر للشك فى هذين المسكينين . وواضح ان هدف هذه المراة الوحيد هو انقاذ زوجها من الفصل . ولم تتفوه بكلمة مريبة لها أو لزوجها .

ولم يعقب السيد لاموت على هذا الكلام ، بل راح يتامل ملامحه ويعجب لحماسته ، ثم ساله بهدوء :

ــ اذن انت ما زلت تعتقد ان كابوش هو الجانى ؟

ــ بلا شك ! . فكل القرائن ضده . وقد بسطت لك الظروف .. وحققت ما اشرت به من احتمال وجود شخص آخر ــ امراة بالذات ــ فى الديوان اثناء وقوع الجريمة . وباعادة سؤال المهندس السائق الذى لمح منظر الجريمة تاكدت انه لم يكن هناك الا قاتل واحد . وان الشكل الذى كان فوق ساقى القتيل هو غطاء ركبتيه الذى وجد مطروحا على القضبان . اجل يا سيدى . ان القاتل هو كابوش .. وان لم يكن هو فنحن صفر اليدين من القاتل .

وكانت الخطة الأصلية للسيد لاموت أن يبرز فى هذه اللحظة الخطاب الذى عثر عليه ، ولكن لا لزوم لذلك الآن بعد ان أمسى واثقا باجرام سيفيرين . ففى استطاعته أن يتريث . وأى ضرر فى ان يترك قاضى التحقيق يسير فى الاتجاه الخاطىء ما دام الاتجاه الصحيح سيسبب من المتاعب أكثر مما يسببه هذا الاتجاه الخاطىء ؟. ان التريث أولى فى هذا المقام . ولذلك وضع على شفتيه ابتسامته المعهودة وقال :

ــ اعترف بانك ربما كنت مصيبا . وقد استدعيتك للتاكد من بعض النقط عن كثب . فهذه قضية غير عادية . وقد اتخذت كما تعلم صبغة سياسية . وقد يقتضى الموقف أن ندافع عن الحكومة فخبرنى بصراحة هل تعتقد من خلال تحقيقاتك وتحرياتك أن القتيل اعتدى على لويزت كرها ؟

فاسبل قاضى التحقيق جفنيه ثم قال :

ــ لا شك انه اقدم أو حاول شيئا من ذلك . والمسالة برمتها لابد

ان تثار امام المحكمة . واذا كان المحـــامى عن المتهم من صفوف المعارضين فلا مناص من التعرض لطوفان من الشتائم !

فهز السيد لاموت راسه ولم يتكلم . بل راح يحسب فى ذهنهالنتائج التى يمكن أن تنجم عن تقديم روبو متهما . ويوازن بين النتيجتين والفضيحتين . ولا شك أن وقوف روبو فى قفص الاتهام سيجعله يفضح سيرة القتيل فيما يختص بزوجته ، وفيما يختص بلويزت ايضا وبسائر الفتيات اللواتى اغتصبن صغيرات ! . وسوف يكون لـكلامه وزنه ، فهو موظف محترم يعطف الناس على غيرته لعرضه وغضبه له . أما « كابوش » فليس لأقواله هذا الوزن لانه من ارباب السوابق . وسوف تؤثر شهادة روبو والمعلومات التى يفضحها عن استغلال القتيل لنفوذه فى شركة السكة الحديدية لخدمة شهواته أو تغطيتها فى اسهم تلك الشركة وسمعتها . فاتهام كابوش أخف الضررين ، ولا قيمة لـكون كابوش بريئا او غير برىء ، ما دامت المسألة تتعلق بسمعة الحكومة ورجالها وأنصارها !

هذه هى النتيجة التى انتهى اليها السيد لاموت فى تفكيره الصامت السريع ، ولذلك نظر الى السيد دنيبزيه وقال له بهدوء :

ـ استمر فى تنفيذ خطتك على الوجه الذى تراءى لك . فاذا كانت دوافع الانتقام لدى هذا الحجار قوية فالتهمة يسهل اثباتها عليه ، ولكن ما أكثر الضـــجة التى ستثيرها القضية ، وما اقذر الفضيحة ! ولكن لا حيلة لنا ما دامت العدالة فوق المصـــــالح الشخصية ، الا اذا رأيت أن تبقى القضية معلقة فى الهواء لعدم الاهتداء الى الفاعل يقينا !

ـ عفوك . ولكن هذه مسألة لا أملكها لانها تتعلق بالذمة !

فادرك السيد لاموت أن الماثل أمامه من البلهاء ، فقال بهدوء :

ـ انى اترك كل شىء لك واثقا بذمتك ، وبحسن تقديرك ووزنك للأمور ، وحرصك على المبادىء السليمة ومقتضيات الآداب العامة . وانت أدرى الناس بأننا فى بعض الأحيان ينبغى أن نختار أهون

الضررين . فالرأى كله لك بحسب القانون . وثق باننا فى دوائر الوزارة نعرف تمام المعرفة فى يد من هذه القضية وأى حنكة تحتــاج اليها . وقد تتبعنا حتى الآن مجهوداتك الضخمة المثمرة . ولعلى استطيع ان اخبرك باننا نترقب فرصة خلو منصب مناسب فى باريس كى نبادر بنقلك الى العاصمة مع الترقية المناسبة !

وادرك دنييزيه ما وراء هذه الكلمات . أدرك ان عدم تنفيذ ما يوحى اليه معناه فقد الأمل فى النقل الى العاصمة . وظهرت الخيبة على وجهه . وقرأها السيد دى لاموت واضحة فاردف يقول :

ـ ان اسمك طبعا مدرج فى كشف المرشحين للترقية والنقل . فالمسألة مسألة وقت وظروف . وما دمت قد تورطت معك فى افشاء اسرار الوزارة الى هذا الحد ، فلا بأس من أن أصرح لك ايضا بان اسمك سيدرج فى يوم ١٥ اغسطس فى كشف المطلوب الانعام عليهم بوسام الشرف . ربما من طبقة ضابط أو فارس . وربما ايضا من درجة قائد .

وفكر دنييزيه فيما سمع . وهو طبعا يفضل الترقية على هـــذا الوسام . فالترقية ستوسع عليــــه وهو الرجل الفقير ذو الراتب الصغير . ومطالب الحياة قاسية عليه ولا يستطيع مواجهة مقتضيات منصبه بســـهولة . انه فى حاجة الى ملابس جديدة . وزوجته الـكسيرة القلب فى حاجة الى كل شىء مما تشتهيه وترى نفسها محرومة منه . ومع ذلك فالوسام ايضا له بريقه ولا يستهان به . وهو الى جانب ذلك ليس الرجل الذى يبيع ذمته بالمال . الا ان الترقية ليست رشوة ، بل هى المكافأة العادلة على العمل الصالح !

وهكذا خدع قاضى التحقيق نفسه فاستسلم لاغراء الوعد بالترقية والنقل والانعام بوسام ، وهى كلهـــا مكافآت مشروطة بشروط . وبرر لنفسه الموقف باسم نظــام العمل . وباسم مصلحة الدولة العليا . فغمغم قائلا :

ـ انى أشعر بعظيم الامتنان ! . وارجو ان تبلغ شكرى للسيد الوزير !

ثم نهض واقفا وقد ادرك أن الموضوع لم يعـد يحتمل كلاما من احدهما ، وأردف وهو واقف :

ـ ساتم التحقيق اذن ، واضعا فى ميزان تقديرى الملابسات التى اشرت اليها . وبطبيعة الحال اذا لم تتجمع لدينا أدلة دامغة ضد كابوش فمن الخير ولا شك الا نجازف بمحـاكمة لا نجنى منها الا الفضائح والتشهير ، وخير من ذلك أن نطلق سراحه ونجعله تحت المراقبة !

وعند الباب اظهر له السيد دي لاموت مزيدا من البشـاشة قائلا :

ـ يا سيد دنييزيه . ان لنا كامل الثقة فى نزاهتك وكياستك !

وما خلا السيد دى لاموت الى نفسه حتى اسرع يضاهى الورقة التى كتبتها سيفيرين منذ قليل بالخطاب الخالى من التوقيع الذى عثر عليه بين أوراق صديقه جرانموران . واثبتت المضاهاة ما ذهب الى ذهنه . فطوى الخطاب ووضعه بعناية فى مكانه . فانه وان لم يذكر حتى الآن كلمة عن ذلك الخطاب لقاضى التحقيق ، قرر الاحتفاظ به كسلاح ثمين بين يديه !

وتمثلت لخياله صورة سيفيرين هيفاء فاتنة رقيقة . ولكنها ذات ارادة فولاذية وتصميم جبار على الدفاع عن نفسها !

وهز كتفيه على طريقته المعهودة فى مزيج من السخرية والتساهل ولسان حاله يقول :

ـ اذا صممت المراة على شيء !

الرجل الآخر

وصلت سيفيرين الى المكان المحدد فى شارع « كاردينيه » قبل الموعد بعشرين دقيقة . وكانت لجاك حجرة مفروشة فى الطابق الأعلى من بيت فى ذلك الشارع لم يكن يستخدمها الا للمبيت . خمسة أيام كل أسبوع . أما الليلتان الباقيتان فكان يبيتهما بحكم العمل فى الهافر .

وفي هذا اليوم بالذات كان المطر أثناء الرحلة من الهافر قد بلله واتعبه بحيث توجه اثر وصوله الى البيت والقى بنفسه على السرير فاستغرق لساعته فى نوم عميق . ومن المرجح أن سيفيرين كانت ستنتظره عبثا لولا أن صياح طفل صغير فى الحجرة المجاورة ايقظه من نومه فاطل من النافذة ورأى سيفيرين واقفة تنتظره فى الشارع فزمجر متذمرا ، واسرع يغسل وجهه ويرتدى ثيابه وقد ضاق صدره عن ذي قبل بهذه المهمة الثقيلة على نفسه لأسبابه الخاصة !

ولما رأته مقبلا نحوها من الباب صاحت :

— هذا انت أخيرا ! . لقد بدات أراجع نفسى ، واعتقد أننى أخطأت فى العنوان . اذن أنت تسكن هنا ؟

فضايقه هذا السؤال لأنه خشى أن تذهب فى توددها شوطا آخر فتطلب اليه أن تشاهد حجرته ، وهى على ما هى عليه من الفوضى وسوء الترتيب فيخجله أن تقع عليها عين انسان . ولذلك قال لها :

— ليس هذا سكنى ! وانما هو استراحة لقربهـا من مخزن القاطرات . هيا بنا بسرعة قبل أن ينصرف المدير !

وتحققت مخاوفه فقد اتضح انه انصرف فعلا ولن يعود قبل

الرابعة للتفتيش على ورشة الاصلاح . فقالت سيفيرين :
ـ لا بأس . سنعود فى الساعة الرابعة .
ولما أصبحت معه وحدهما فى الشارع قالت له :
ـ اذا لم تكن مشغولا فهل لديك مانع من البقاء معى حتى الرابعة ؟

ولم يكن فى وسعه طبعا أن يرفض ، برغم ما كانت تثيرة فى أعصابه من هزة . فإن سحرها ورقتها أخذا يستوليان على زمامه ، فانفرج صدره بعد ضيق ولم يجد فى نفسه القدرة على ايلامها بالرفض فقال فى مزيد من البشاشة لم تعهده فيه :

ـ طبعا سأمكث معك ! . ولكن امامنا ساعة طويلة . فهل نجلس فى مقهى ؟

ـ لا أحب الأمكنة المغلقة . وأفضل المشى اذا لم يكن لديك مانع !

وتأبطت ذراعه من تلقاء نفسها . وقد لاحظت أنه فى ثيابه المدنية بعيدا عن جو العمل ، يبدو شابا وسيما فيه وجاهة وأناقة . لأول مرة تبينت ملامحه بوضوح فاذا هى دقيقة متناسقة يزينها هـذا الشارب الأسود . وكل ما فيه مريح للنظر الا عيناه فلونهما ذهبى ، وهما تروغان دائما من ملاقاة عينيها . فلماذا يا ترى هذا الروغان ؟. ان معنى ذلك انه لا يثق فيها أو لا يثق فى نفسه . وانه لا يريد ان يكون فى جانبها فى محنتها !

وزاد شكها وقلقها بشأن موقف السيد دى لاموت منها فى تشبثها بالسيطرة على الأقل على هذا الرجل الذى تتأبط ذراعه . وعولت على اكراهه على النظر فى عينيها كوسيلة لترويضه . ولم يكن الحب يخطر لها على بال ، وانما كان كل همها ضمان الأمان لنفسها !

وسارا صامتين بضع دقائق وسط الزحام ، ثم عرجا الى ميدان الباتنيول الذى كان خاليا تقريبا ، فاقترحت سيفيرين التوجه الى بعض الحدائق ، فصادف هذا الاقتراح منه قبولا لأنه ضاق بالزحام !

وكانت الحديقة خالية الا من بعض الأمهات واطفالهن . فتسلقا هضبة من الصخور الصناعية وجلسا فوق خميلة فى ظل شجرة ، وقد هيأ المكان لهما خلوة تكاد تكون تامة ، وبدآ يتحدثان عن الشمس التى سطعت والجو الذى صفا بعد المطر . ولكن هذه الاشياء لم تكن هى التى تشغلهما !

كان جاك يفكر فى دائه الخاص ازاء النساء ، وفى الظـــروف العجيبة التى اقحمت هذه المراة فى حياته فاصبحت تهدد كيانه كله . وانه ليشعر منذ تمت المواجهة فى روان ان هذه المراة شريكة القاتل . ولكن ما الذى حدا بها الى ذلك ؟ وسبق الى وهمه ان جشع زوجها جعله يطمع فى الاستيلاء بسرعة على الهبة التى وردت بالوصية . أو ربما خشى ان يغير الرجل وصيته فيحرم هو وزوجته من هذه الهبة . وكانت فكرة الافضاء للمحقق بما يجول فى نفسه تراوده !

اما هى فكانت تعتقد ان هذا الفتى يرتاب فيها وفى زوجها . فجعلت تجتهد فى جس نبضه وتلمس افكاره . والتقت عيناهما لحـــة فقرات فى عينيه انه يتساءل أكانت هى ذلك الشكل القاتم الجاثم على قدمى القتيل ؟!

اى الوسائل تتخذ لتسيطر على هذا الفتى ؟

وبغير تفكير تناولت يده ونظرت فى عينيه . وكانت الأشـــجار تحجبهما . وبغير مواربة سالته فى همس خافت :

ـ اتعتقد اننى مذنبة ؟

فارتجف ، ولكنه لم يحول عينيه عن عينيها وقال بصوت أجش :

ـ « نعم ! » .

فضغطت يده وصمتت بضع دقائق لتترك للحمى التى تنتقل بهذا التلامس بين جسديهما فرصة السريان ، ثم قالت وقد استوثقت من بلوغ التخدير مداه المناسب : « انت مخطىء . لست مذنبة ! » .

قالتها لا لتقنعه ، بل لتوحى اليه بانها ينبغى ان تظل بريئة فى

نظر الناس . فكأن هذا الانكار الظاهرى اعتراف ضمنى كامل !

وسرها انه لم يستطع تحويل عينيه عن عينيها . وما من شك أن عبارتها كانت بمثابة استسلام كامل له . فمعرفته سرها تعنى انه يملك الحق فى امتلاكها متى وأين شاء . ولكن ذلك لم يعنها فما دامت قد انشأت بينهما رباطا لا ينفصم فهو ملك يمينها كما انها ملك يمينه !

وها هو ذا يقول لها اخيرا : « انى أصدقك ! » .

ثم مال على اذنها والأمل يخامره انه يمكن أن يحب لأول مرة في حياته امرأة من غير أن تحدثه نفسه بقتلها ، وقال لها هامسا :

ـ انت تعلمين أننى صديقك ولا خوف عليك من جهتى . وتستطيعين الاعتماد على فى اى شيء !

وكان وجهه قريبا جدا من وجهها بحيث شعر بأنفاسها تلفح شاربه. ومن الغريب أنه لم يشعر بذلك العذاب الداخلى ، والصراع بين نفسه وبين القاتل الكامن فى أعماقه . بل شعر بخدر لذيذ . ولعل علمه بأنها قتلت شخصا قد ميزها فى نظره عن سائر النساء . وانطلقا يتحدثان فى حبور كما يفعل العشاق ! ثم قالت له :

ـ أعطينى يديك لأدفئهما لك !

ـ ليس هنا . فقد يرانا أحد !

ـ ومن الذى سيلاحظ شيئا ؟ . نحن هنا وحدنا . ثم ما الضرر ؟ نحن صديقان . ولا ينبغى أن يعلم هذا السر أحد مطلقا حتى ولا زوجى ! . والآن اترك يدى ولا تحملق فى وجهى هكذا والا ارهقت عينيك !

فلم يطلق يدها وهمس فى صوت متلعثم :

ـ انى أحبك ! . وانت تعلمين هذا !

فتخلصت من يده وقالت :

ـ كيف تقول شيئا كهذا ؟

وانقذ الموقف مرور مربية مع طفلة . ثم دقت ساعة الكنيسة

القريبة خمس دقات فصاحت سيفيرين وهى تهم بالوقوف :

ـ الساعة الخامسة ! وعندى موعد فى شارع دى روشيه !

واسرعت وقد عاد اليها قلقها من جهة هذا الموضوع تريد أن تذهب فقال لها جاك وهو يتناول ذراعها :

ـ وماذا عن زيارة مدير قسم القاطرات ؟

ـ ساراه فى فرصة أخرى ! . ولا أريد أن أثقل عليك أكثر من هذا فشكرا لك من أعماق قلبى . وسنتقابل فى القطار !

وشدت على يديه بحرارة ثم أسرعت مبتعدة !

***

وكان السيد دى لاموت قد تحدث مع مدير قسم الحركة فى بعض أمور الشركة ثم فاتحه فى موضوع قضية جرانموران وما تثيره من متاعب للشركة لأن الحادث وقع فى القطار والشهود من موظفى الشركة . وعندئذ قال مدير قسم الحركة :

ـ ان الشركة قر رايها أخيرا على فصل المعاون روبو قطعا لدابر الاشاعات .

وعندئذ احتج السيد دى لاموت بشدة :

ـ ان الصحافة المعارضة ستثير حملة قوية وتدعى ان المسكين فصل لأسباب سياسية . وكفانا ما اثاره هذا الموضوع من زوابع صحفية . ومن الخير أن ندع العاصفة تمر . واؤكد لك ان هذا المعاون المسكين وزوجته بريئان ، وهما أحوج الى العطف فى هذه المحنة !

وهكذا اقتنع مدير قسم الحركة بوجوب العدول عن فصل السيد روبو وتثبيته فى وظيفته ومكانه والقضـــاء على ما حول موقفه من اشاعات .

فلما حضرت سيفيرين لمقابلة السيد دى لاموت وهى تلهث ، نظر اليها بضع دقائق فى صمت وهو يعجب أشد الاعجاب بقوة اعصابها الهائلة ، وبجاذبيتها الشديدة المتمثلة فى عينيها الزرقاوين !

وبعد أن تمتع بالتلاعب بأعصابها كما شاء ، قال لها :

ـ لقد قابلت مدير قسم الحركة وسويت معه موضوع زوجك .

وسيبقى فى وظيفته بمحطة الهافر . وهو موضع الرعاية !

ولم تستطع وسط طوفان السعادة والارتياح ان تقول شيئا ، وانما ابتسمت وسط وابل من الدمع . فكرر السيد دى لاموت عبارته الاخيرة ليزيدها رسوخا فى ذهنها ، ثم أردف :

ــ تستطيعين يا سيدتى أن تعودى الى الهــافر مستريحة البال !

وفطنت بغير خفاء الى ما فى كلماته هذه من مغزى . وانهــا لا تنصب على وظيفة زوجها كما تنصب على الخطاب الذى تحت يده . وانه سوف لا يلقى القبض عليهمــا وأن القضية ستسوى أو تحفظ !

وبغريزة الحيوان الأليف انحنت فوق يديه تقبلهما ، واحتفظت بهما لحظة على صفحة خدها . فتأثر كثيرا بهذه الحركة ولم يسحبهما، بل تنحنح وقال ليدارى انفعاله :

ــ ولكن تذكرى ... انه يجب أن تكونى فتاة صالحة !

ــ طبعا يا سيدى !

انه حريص على أن يشعرها بأنها وزوجها تحت رحمته فى أى لحظة . وقد فهمت ما يعنيه تمــاما ، فقالت بعد ان استردت هدوءها :

ــ انى أدرك تمام الأدراك ما تعنيه يا سيدى ! .. وثق بأن اشارتك انجيل مطاع عندنا ، وانى رهن أوامرك !

فابتسم ، وودعها الى الباب ، والتفتت هى نحوه مرتين قبل أن تبتعد !

وما وصلت الى الشارع حتى راحت تجرى وهى تكاد ترقص ! . ولما وجدت ان الساعة السادسة الا ثلثا قالت لنفسها :

ــ لأملأن قلب زوجى رعبــا قبل أن أطمئنــه ! . والآن فلأدخل مطعما وأتناول عشاءا فخما !

وانتقت أفخم مطعم فى الشــارع ، وطلبت أغلى الأطباق وهى

جالسة على مائدة بجوار النافذة لتستمتع بالشارع . وقد احست لاول مرة منذ أسابيع بنعمة الحياة !

وبعد أن استمتعت بعشائها ، ثم احتست فنجانا من القهوة ، اسرعت الى المحطة لتدرك القطار !

ووصلت الى الرصيف فى آخر لحظة ، فمرت بسرعة الى جوار القاطرة ولوحت بيدها لجاك ، ثم ركبت ديوانا خاليا فى الدرجة الأولى وجلست بجوار النافذة تنظر بهيام الى المناظر الطبيعية التى تمر بها وهى تكاد تطير من فرط السعادة . حتى اذا وصل القطار الى محطة الهافر أسرعت الى القاطرة فشكرت جاك بابتسامة وقالت له :

ـ طاب ليلك ! وشكرا .. سأراك غدا .. !

***

فى خلال الشهر التالى ساد الهدوء والسكون مرة أخرى مسكن آل روبو وأصبحت دقات الساعة هى المتحكمة فى نظام حياتهما كما كانت من قبل ، وكأن شيئا غير عادى لم يطرأ على حياتهما !

وكذلك قضية جرانموران أخذ النسيان يسحب عليها ذيوله ، ويبدو أن السلطات لم توفق لتبين الفاعل . فبعد أسبوعين من التحقيق قرر القاضى الافراج عن كابوش لعدم توافر الأدلة !

وهنـاك عامل آخر عجـل بتحقيق آمال الزوجين ، هـو عدول آل لاشيناى عن الطعن فى صحة الوصية بناء على نصيحة مدام دى بونهون تجنبا لاثارة الأقاويل حول الفقيد وسمعته ، فضلا عن عدم احتمال كسب القضية . وبذلك أصبح آل روبو منذ اسبوع مالـكين غير منازعين لبيت ضيعة موفراس وحديقته ، وتقدر قيمتهما بأكثر من اربعين الف فرنك !

ولم يكن من المحتمل أن يظفر بالراحة النفسية فى جو ذلك البيت الملطخ بالدم والتبذل ، فاعتزما أن يبيعاه بما فيه بغير تفكير فى تنظيفه أو اصلاحه ، ولكنهما لم يتعجلا بيعه . واكتفيا بتعليق لافتة

على واجهته بخط ضخم يقرؤه جميع ركاب القطارات . وتركت سيفيرين المفتاح لدى آل مينار كى يفتحوا البيت لكل من يرغب فى مشاهدته ، وللقيام بتنظيفه !

وهكذا انتهت متاعب آل روبو فاستسلما للحياة السهلة الرخية . ومتى يتم بيع البيت يوضعا المبلغ فى وجه من وجوه الاستثمار فتزيد حالتهما رخاء . ولم يعد يكربهما مسكنهما المنزوى عن الشارع ، لأنه بعيد عن أنظار المتطفلين وأنظار الجيران المعادية !

ولم تظهر كفاءة روبو وانصرافه للعمل كما ظهر فى هذه الفترة . وفى نوبات عمله بالنهار كان يغادر المسكن فى الساعة الخامسة صباحا ، ويعود لتناول الغداء فى العاشرة ، ثم يغادر البيت فى الحادية عشرة ويظل يعمل الى الخامسة بعد الظهر . أما فى نوبات العمل الليلى فلم يكن يعود الى البيت لتناول العشاء بل يكتفى بشطائر يأخذها معه فى الخامسة بعد الظهر . ويبدو أن اهتمامه بكل دقائق العمل قد زادت . ولعل هذا الانهماك كان يستغرق تفكيره فلا ينصرف الى الخواطر المزعجة !

وأما سيفيرين فكانت تمضى معظم الوقت وحدها . وأسبوعا فى كل أسبوعين لا ترى زوجها على الاطلاق وفى الاسبوع الآخر لا تراه الا خطفا فى أوقات الغداء والعشاء . فصارت تشغل نفسها بأعمال البيت بعد أن كانت تترك ذلك للأم سيمون . ووجدت فى هذه الأعمال ما يسليها عن الخواطر المقلقة !

أما فيما يختص بالنوم فكانا كلاهما ينامان نوما عميقا بعد أن اطمأن خاطرهما . وبمرور الوقت سئمت سيفيرين أعمال البيت الخشنة وتركتها مرة أخرى للأم سيمون . وأصبحت تقضى معظم الوقت فى السرير مشتغلة بالتطريز . وقد تركتها مدام لبلو تنعم بالهدوء بعد أن اطمأنت الى انها لا تطمع فى مسكنها !

كان البيت ممتعا هادئا ، لولا نقطة واحدة فيه ، موضعها بالضبط فى حجرة المائدة . ولم يكن يقع بصرهما عليها بغير أن

يضطربا . ولم تكن هذه النقطة سوى قطعة من خشب الأرض انتزعاها ودفنا تحتها الساعة الذهبية والسلسلة والعشرة آلاف فرنك من أوراق النقد والثلاثمائة فرنك من العملة الذهبية ، وهي الأشياء التي أخذها روبو من جيوب القاضي جرانموران .. لا طمعا فيها لذاتها ، بل للايهام بأن الجريمة وقعت بقصد السرقة !

وقد صرح روبو لزوجته مرارا بأنه رجل مبادىء ، وليس لصا ، فهو يفضل ان يموت جوعا الف مرة فى هذه الحجرة بالذات ، على أن يمد يده الى هذا المال . وهو راى غريب اذا راعينا أن الميراث الذى آل الى زوجته بسبب علاقتها القديمة للقتيل لم يكن ينغص عليه حياته !

ومن الغريب أيضا ، انه لم يقم بحرق هذه الأوراق المالية أو القاء الساعة وكيس النقود الذهبية فى قاع البحر . مع ان هذا أسلم عاقبة من الاحتفاظ بها !

ان دافعا خفيا فى أعماقه منعه من ذلك ، فهو فى أعماق سريرته يحترم المال احتراما يمنعه من التجاسر على اعدامه !

وكان هناك عامل آخر غريب على جو البيت الهادىء . وهذا العامل مسئول عنه روبو كما انه مسئول عن الاحتفاظ بذلك المال فى البيت . ونعنى بذلك كثرة زيارات جاك الذى كان روبو يدعوه باستمرار للسمر أو للطعام . وكانت نوبات العمل تأتى بالسائق الى الهافر ثلاث مرات فى الأسبوع . مرة يوم الاثنين من العاشرة والنصف صباحا الى السادسة والثلث بعد الظهـــــر . ومرتين فى يومى الخميس والسبت ، من الحادية عشرة مساء ، الى السادسة والدقيقة الأربعين صباحا !

كان روبو غداة عودة سيفيرين من باريس ، قد ذهب اليه شاكرا قائلا له :

ـ تعال يا جاك . لا يصح أن ترفض تناوله لقمة معنا . فهذا اقل ما يجب بعد المساعدة التى بذلتها لزوجتي فى باريس !

واذعن جاك . ثم قبل دعوتين بعد ذلك للغداء . وكان روبو كثير المرح والمزاح فى هذه المرات . ثم أصبح حضور جاك للزيارة والسمر أمرا اعتياديا فى كل مرة يصل فيها الى الهافر . بحيث يتغدى على مائدتهمـــا يوم الاثنين ، ويتعشى ويسهر للسمر يومى الخميس والسبت بانتظام .

واذا حدث ان تأخر جاك مرة بحث عنه روبو .

وكانت مهمة جاك الأساسية الترويح عن الزوجين وتبديد جو الانقباض والتوجس من جهته . فلا يكاد يظهر عند الباب حتى تطلق سيفيرين صيحة فرح وتترك كتابها أو تطريزها ، وتقبل عليه بالثرثرة والضحك والدعابات المرحة . وكانت تعنى بالمـائدة فى تلك المناسبات عنـاية خاصة بعد دراسة لذوقه وميوله !

وتنبه الزوجان بعد شهر من هذا النظام ، الى أن ذلك العامل الجديد قد باعد ما بينهما . فقد صارت سيفيرين اميل للنوم وحدها فى الفراش وصارت تتهرب من النوم معه ما امكن . مع انها كانت قبل الحادث لا تمانع فى رغباته اليومية . وهو من جانبه لم يحاول اكراهها أو الضغط عليها . وحين تستيقظ فى الليل يخيل اليهـا فى ضوء الشمعة انها تراه فى لحظة الجريمة وقد رفع المدية فى يده !

وليس معنى هذا أن روبو كان يشعر بأى تأنيب . وانما هو تصرف طبيعى غريزى لتحاشى ما يذكر بالحوادث المؤلمة . ولذلك كان لا يجاذب زوجته اطراف الحديث فى الأوقات القليلة التى ينفرد معها بالمنزل !

وفى ذات ليلة ، فيما كان عائدا مع جاك قابل هنرى دوفرنى نازلا من مسكنهما . وقال له هنرى باضطراب ظاهر : « لقد جئت أحمل الى سيفيرين رسالة من شقيقتى » .

والحقيقة انه كان لا يزال يطارد سيفيرين طامعا فيها ، ولم يفت ذلك روبو فسأل زوجته حين فتحت الباب :

ـ ما الذى كان يصنعه دوفرنى هنا ؟

ـ جاء يقترض نموذجا للتطريز .

ـ اتظننين مغفلا أجهل ماذا جاء ينشد ؟

وتقدم نحوها رافعا قبضة يده ، فتراجعت مذعورة . غير انه لم يلبث أن هدأ والتفت نحو جاك قائلا :

ـ هناك اشخاص يأتون الى بيتى واثقين بأن زوجتى سترتمى فى أحضانهم ، وبأنى سأتغاضى وابارك غرامهما ! هذا شىء تفور له الدماء فى عروقى ! وانى افضل أن أصرع زوجتى اذا حاولت أن تقدم على شىء من ذلك . وسألقى على دوفرنى درسا لا ينساه !

وارتبك جاك ولم يدر ماذا يقول ، ولم يفهم ما وراء هذا الكلام ؟ . وهل هو انذار غير مباشر له ؟ . غير ان شكوكه تبددت حينما غير روبو لهجته وقال لسيفيرين مداعبا :

ـ أيتها البلهاء ! . انى واثق بأنك ستلقينه من فوق السلالم بنفسك عند اللزوم . هاتى الكئوس وتعالى اشربى معنا !

وعلى هذا النحو ، وبغير تبصر فى العواقب ، راح روبو يجمع بين زوجته وجاك فى جو من الاختلاط ورفع الكلفة .

وبعد يومين قابلها جاك على انفراد وأعرب لها عن أسفه لفظاظة زوجها أمامه فى معاملتها . فذرفت الدموع ، وبثته أحزانها ، وأطلعته على مدى ما فى زواجها من تعاسة ووحشة !

ومنذ تلك اللحظة أصبح بينهما سر محـــــدد واضح يتناجيان فى شأنه ، ولا يتحدثان عنه مع أحد آخر ! . وان كانا ـ أحيانا ـ يتبادلان النظرات والتوريات اثناء وجود روبو . فكلما جاء للزيارة سألهـــا بعينيه : هل جد جديد من دواعى الألم والتنغيص ؟ . فتجيبه أيضا بعينيها !

وكان يطيب لهما أن يتضاغطا بالأكف الملتهبة وراء ظهره ، فيعبران بزيادة الضغط عن نمو اهتمام كل منهمـــا بالآخر . وزاد الأشواق اشتعالا أنهما نادرا ما تقابلا فى غير حضور روبو . ولم يخطر ببالهما

فى تلك المرحلة ان يتقابلا فى الخارج أو يتواعدا على لقاء مختلس فى بعض المواضع المهجورة من المحطة وملحقاتها . فقد كان ما بينهما مقصورا على الفهم المتبادل والعطف والمودة . ولهذا كانت النظرة أو ضغطة اليد متعة كافية ، وما دام الأمر كذلك فوجوده معهما لم يكن يثقل عليهما كثيرا !

على أن الأمر لم يكن يحتمل ان يمضى على هذا النحو الى غير نهاية . ففى ذات مرة همس جاك فى اذن سيفيرين بأنه سينتظرها عند منتصف الليل يوم الخميس القادم وراء مخزن المحطة ، فاخذت هى بهذه المفاجأة ، وسحبت يدها من يده . وكان معروفا ان ذلك الأسبوع هو أسبوع النوبة الليلية لزوجها . ولكنها كانت تنفر من فكرة التسلل من مسكنها ليلا والتوارى بظلال القطارات كى تلتقى بحبيبها ، ولهذا اضطربت أمام ذلك الاقتراح ، وتملكتها المخاوف كما لو كانت فتاة عذراء غير مجربة ! وبرغم شدة شوقها لاجابة طلبه ، تركته يلح عليها اسبوعين كاملين قبل أن تستجيب له !

وكان الوقت فى أوائل شهر يونية ، والليل حار ، ولا تكاد الريح تهب من البحر . وكان الليل حالكا لا قمر فيه ولا نجوم !

وفيما هو واقف فى الظلام لا يدرى هل تأتى هذه الليلة . أو تتركه ينتظر عبثا كما فعلت من قبل ثلاث مرات ، اذا به يراها اخيرا مقبلة نحوه مكتسية بالسواد تمشى على حذر ! . وكانت الظلمة شديدة حتى أنها كان من الممكن أن تمر بجواره ولا تراه لولا انه بسط ذراعيه ليوقفها ، ثم قبل عنقها ، فارتعدت وأطلقت صرخة خافتة ، ثم ضحكت واسلمته شفتيها !

وكان هذا كل شيء ! لأنها رفضت ان تجلس فى أى ركن من الأركان المتناثرة ، أو المقاعد المعدة تحت العرائش للعمال . ورفضت كذلك ان تقف معه الى جوار حائط وأصرت على المشيء المستمر : فتجولا بين المخازن والعربات وقد تشابك ذراعاهما تشابكا عنيفا ، واخذا يتناجيان همسا !

والحقيقة ان المخازن فى محطة الهافر تكاد تكون غابة ملتفة كثيرة

التهاريج والدروب ، يضل فيها من لا يعرفها تمام المعرفة ، فكانت ملاذا ومخبأ لا يتصور المرء خيرا منه . وهكذا نعما بساعة كاملة من العزلة الهنيئة ، تبادلا فيها ما طال بهما كتمانه من الاشواق . وظلت الاحاديث بينهما بريئة لأنها انذرته منذ البداية بأنها لن تكون له بجسدها كله لأنها تريد ان تحتفظ باحترامها لنفسها فلا تدنس ما بينهما من الصداقة !

وفى نهاية الساعة عاد بها الى نهاية المخزن ، وقبل أن يفترقا تلاصقت شفاههما في قبلة اخيرة طويلة !

***

وفى تلك الساعة نفسها كان روبو مغفيا على المقعد الجلدي الضخم فى حجرة مكتبه . فهو حتى الساعة التاسعة كان مشغولا باستقبال القطارات وقيامها . وكان قطار القادمين من السفن فى هذه الليلة مزدحما متعبا . وبعد الساعة التاسعة تناول عشاءه من الشطائر ثم اغفى حتى ايقظه صفير قطار روان فى الثانية عشرة والنصف . وبعدها ساد الصمت واقفرت المحطة ، فاستسلم للنعاس مرة أخرى ، وحذا حذوه الحـــراس الذين على الرصيف بعد أن ضبط المنبه على الساعة الخامسة ليتمكن من استقبال أول قطـــار يقدم من باريس !

وتعاقبت الليالى بعد ذلك ، وقد صار من النظام الثابت أن تتسلل سيفيرين لمقابلة جاك فى منتصف ليلتى الخميس والسبت ، اسبوعا بعد أسبوع ، أثناء نوبات زوجها الليلية !

وفى ذات مرة ذكرت فى معرض الحديث مع جاك ان زوجها يحمل في نوبته الليلة مسدسا ، وانه يتجول بين المخازن أحيانا للتفتيش . فكان لهذا النبأ اثره فى جاك . واصبح أكثر حذرا وتوغلا فى داخل المخازن ، مخازن الآلات لا مخازن البضائع ، لأن روبو لم يكن يفتش فى الليل الا مخازن البضائع توقيا من اللصوص . واخيرا اكتشفا بالتجربة مكانا فى زقاق يقع خلف بيت سوفانيا أمين مخازن الفحم ،

وهذا الزقاق واقع بين اكوام الفحم الحجرى الضخمة التى تضفى بسوادها الحالك مزيدا من الظلمة على ظلمات الليل ! .. وفى نهاية الزقاق عريشة تحتها كومة من الزكائب الفارغة يستريح فوقها العمال في النهار .

وفى ذات ليلة اكرههما المطر على الدخول تحت العريشة . غير أن سيفيرين رفضت أن تجلس فوق تلك الزكائب ، واصرت ان تظل واقفة ، ولم تبح لعشيقها طول الساعات الثلاث التى استمر فيها هطول الأمطار سوى شفتيها ، بغير تحرج وبسرور عميق ، فلما اشتعلت رغباته بتلك النيران وهما واقفان وجعل يتوسل اليها أن تستسلم ، انفجرت باكية وعارضته متمسكة بمعاذيرها السابقة . مؤكدة له أن الحب بغير تعقيدات الجنس هو المثل الأعلى عندها للحنان !

والواقع أن سوء استهلال حياتها الجنسية على يد القاضى المتوحش ، ثم على يد زوجها الفليظ ، جعل طبيعتها الغضة الحالمة تسيء فهم الحياة الجنسية وتذوقها ، فظلت غرائزها كامنة لم تستيقظ . وحسبت المسكينة انها ستظل نائمة ، وان هذه هى حالتها السوية . ولم تعلم ان غرائزها توشك أن تستيقظ ، وانها متى استيقظت فستذهب بها الى مدى لا تقدره !

وكان يستهويها من جاك تعففه عن العبث بيديه ، ورضاه بتسليمهما لها تحبسهما فى يديها !

لقد كانت تحب لأول مرة فى حياتها ، ولهذا كان يزعجها ان تمنحه نفسها على النحو الذى انالت نفسها للرجلين الآخرين ! . وكانت تريد أن تبقى لذلك الحبيب الأول وضعه الخاص ، واستمرات أن تتخيل نفسها لم تزل عذراء تنعم بحب طاهر فى ظلال الصبى البريء الذى لا تعرفه الا العذارى فى سن الخامسة عشرة ، واقصى

مناعمه اختلاس القبلات فى ظلال الأشجار أو وراء الأبواب .

وكان جاك من جانبه لا يطالبها بشىء الا فى تلك المرة التى زادت فيها حرارة دمائه بما يسرى اليه من حرارة جسدها وهما واقفان تحت المطر . واستمرأ هو أيضا مماطلة لذة الوصال . وشعر بأنها حبه الأول بالمعنى السوى للحب . وانه عاد الى سن السادسة عشرة. فهذه اول مرة يحب فيها امراة ولا يصطبغ ذلك الحب بالدم وشهوة القتل . وهو يخشى اذا انتهى بهما الأمر الى ما هو أكثر من ذلك ان تثور فيه تلك الرغبة الأثيمة التى يتملكه الخوف من معاودتها اياه !

ان سيفيرين هى حلمه المثالى بالحب الجنسى ، لأنها أول تجربة ناجحة له فى طرد الشذوذ من طبيعته . وكل يوم يقضيه معها يزيده اعتقادا بأنه شفى وأصبح مثل سائر الرجال !

انه يحتويها بين ذراعيه الساعة فى اثر الساعة ، ينهل من شفتيها جرعا يكاد يشرق بها فتسكر اعطافه من خمر رضابها وتشيع النشوة فى جوانحه ، ولا تخامره أى رغبة فى اتمام تملكها بطعنة سكين بين الصدر والنحر منها !

ومع هذا فهو لا يجسر على المضى الى نهاية الشوط . انه لا يجد فى نفسه الشجاعة على الثقة بسلامته ، لكثرة ما قاسى من متاعب ذلك الداء . ولهذا كان تسويفها على هواه ، ريثما تنضج عواطفهما المكبوتة نضجا كافيا فتجرف جميع عقبات المقاومة الارادية من طريقها وتلقى بكل منهما بين احضان الآخر فلا يستطيع للنهاية السعيدة المحتومة دفعا !

وهكذا استمرت مقابلاتهما محتفظة بطابع الحنان والصفاء ، ولم يدركهما السأم أو الكلال من التجول معا متخاصرين فى ذلك التيه المظلم بين أكوام من الفحم كأنها فى تصورهما قصور من المرمر الأسود . فحينما ينتشى الانسان بخمر السعادة يجمل فى نظره كل شىء ، ويكتسى من الزينة والزخرف شيئا رائعا زوقته تهاويل الخيال !

وفى ليلة من ليالى شهر يولية ، تأخر قطار جاك . لأنه بعد ان غادر محطة روان قامت عاصفة جعلت الرحلة شاقة جدا ، ولقى جاك عناء شديدا فى تسيير قاطرته المحبوبة ليزا . وزاد فى قلقه ومتاعبه انه كان على موعد فى تلك الليلة مع سيفيرين فى مخزن الفحم ، وخشى أن تحول رداءة الطقس دون خروجها للقائه !

وكم حمد ربه حين وصل الى الهافر ووجد أن المطر لم يبدأ بعد فى الانهمار . ورأى روبو واقفا على الرصيف فى نوبته الليلية فحياه ، ثم اطلق الصفارة وهو يتمنى من اعماقه لو أسرع الركاب فى النزول ، وبعد ذلك عاد بالقطار الى الوراء ليودعه المخزن ، وترك لوقاده بيكيه مهمة اطفاء النيران ، متعللا بأنه جائع ولا يستطيع الانتظار !

وفى هذه اللحظة دوى الرعد ، ثم بدا المطر ينهمر ، وزمجرت الرياح فى عنف شديد ، فظهر اليأس على وجه جاك وتقوضت كل آماله فى مقابلة سيفيرين تلك الليلة . ولم يجد خيرا من الذهاب مع بيكيه الى الكانتين لتناول وجبة العشاء . وكان الكنتين يقع خلف مخزن القاطرات مباشرة .

وقبل أن يبدأ طعامه غسل جاك وجهه ورأسه ويديه بعناية كعادته بالماء الساخن والصابون ، ثم بدل ثيابه كعادته أيضا فى أعقاب كل رحلة فبدا أنيقا من الرأس الى القدم . أما بيكيه فلم يغسل الا أرنبة أنفه وأصابعه ، ثم هجم على الطعام هجوم الضوارى .

وكانت نوافذ الكانتين تتيح للجالسين فيه مشاهدة العاصفة . فكان منظرها كافيا للقضاء على شهية جاك . ولاحظ ذلك بيكيه فقال له :

— ألست تنوى ان تأكل شيئا ؟

— كلا ويمكنك أن تأخذ نصيبى من الخبز واللحم . فلست اشعر بجوع !

ولم يتردد بيكيه فى الانقضاض على طبق جاك . ثم اتى على زجاجة النبيذ وهو يقول :

ـ ماذا يهم المطر ونحن بمنجاة منه :

ثم ضحك ضحكة عالية واستطرد قائلا : « يظهر يا صاحبى انه كانت لديك مهمة فى هذه الليلة . فلا يستطيع احد ان يقول عنا نحن الاثنين اننا نبلى حشية فراش الشركة فى هذه البلدة من كثرة النوم ! » .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ اعنى انك فى هذا الصيف قد اقتديت بى واصبحت لا تذهب الى فراشك فى هذه البلدة قبل الثالثة صباحا !

ولا يبعد ان يكون بيكيه قد لمح العاشقين . ولكن جاك لا يخشى من ذلك لأن بيكيه مخلص له ، ولأنه رجل بحبوح . ومع هذا راوغه قائلا :

ـ لقد شكوت فى المدة الاخيرة من صداع يلازمنى فلابد لى من استنشاق الهواء فى الليالى الحارة !

ـ لا عليك فانما كنت امزح . ولكن تذكر انك اذا وقعت فى مأزق ففى استطاعتك ان تعتمد على كل الاعتماد . وانا الآن ساتركك واذهب لدى من تعرف فالباب قريب جدا من هنا !

وكان باب فيلومين فى الطابق الأرضى من بيت شقيقها قريبا جدا فعلا خلف مخزن القاطرات !

وخرج جاك بعد ذلك معرضا نفسه للمطر ، فاتجه الى العريشة ولكنه لم يدخل تحتها بل وقف فى العراء والأمل لا يزال يراوده ان تحضر سيفيرين . والحقيقة انه كان يجد لذة فى انتظارها حتى ولو لم تحضر . ثم جعل يتمشى على طـــول الزقاق وسط اكوام الفحم والمطر يكاد يعمى عينيه الى ان وصل الى عريشتهما المختارة فى نهايته . وقد خيل اليه انه سيشعر هناك بالوحشة اقـل وطأة ، وبالوحـدة اكثر ايناسا ، لمـا فى تلك العريشة من رياها وطيب ذكراها !

واوغل فى الظلام تحتها ، فاذا ذراعان تلتفان حول عنقه ، واذا شفتان ملتهبتان تطبقان على شفتيه !

وكانت سيفرين !

ــ انت ؟! لقد جئت اذن ؟

ــ نعم يا حبيبى ! . رأيت العاصفة تقترب فوق الأفق ، فدبرت امرى بحيث حضرت الى هنا قبل ابتدائها . لله كم تأخرت !

كانت الألفاظ مختلطة بالتنهدات . ولم يسبق لها أن تعلقت بعنقه بهذا الشغف . ثم انزلقت جالسة أولا فوق أريكة خشبية . ثم فوق أكوام الزكائب فى الركن ، وذراعاها ما تزالان حول عنقه . فسقط على الأرض بسقوطها ويداه حول خاصرتها . وكادت الدماء النابضة فى عروقهما أن تختلط أيضا لعنف تدفقها وثوراتها فى جسديهما .

والحقيقة ان ذلك لم يكن فى حسابهما ولم يرتبا له تدبيرا . وكل ما هناك أنها كانت قد فقدت الأمل فى حضوره عندما رأته مقبلا . ففى فرحة اللقاء ، وفى فرحة الشعور به مرة اخرى بين ذراعيها ، اجتاحتها رغبة عارمة فى أن تكون له وتشعر بلذة الاستسلام .

ولما أفاق جاك من خمار النشوة ، أدهشه أن المطر ازداد غزارة . فتحسس الارض من حوله ليطمئن على انه لم يخترق سقف العريشة فوقعت يده على مقبض مطرقة من الحديد ! وأسعده أن يتبين بالتجربة أن وجود مثل ذلك السلاح فى يده ، وفى ظروف انسب ما تكون لاستخدامه بأمان ، لم يثر لديه رغبته القديمة فى القتل ، قتل التى يشتهيها !

أجل لقد شفته سيفرين بحبها من دائه شفاء تاما . وشعر بأن وراء ضعفها الظاهرى قوة خفية ، هى قوة دماء هذا الرجل الذى قتلته ، ان القاتل الذى يكمن فى أعماقه يرى فيها نظيرا له يحترمه احترام الزملاء .

وبامتنان عميق احتواها ثانية بين ذراعيه وعب جرعة أخرى من الكأس التى استطاب حلاوتها .

وفى هذه المرة لم تقاومه علىَ عادتها ، لأنها لم تجد للمقاومة بعد ذلك معنى ، ولا سيما انها وجدت لتلك الكأس بين احضانه طعما يختلف كل الاختلاف عن طعمها فى أحضان الرجلين الآخرين ، بل انها لتشعر الآن بندم عميق على طول ما حرمت نفسها من ذلك المتاع . وانها لواثقة الآن انها كانت تضمن فى اعماقها منذ البداية تلك الرغبة فى منحه نفسها . فقد كان كلّ ما فيها يصرخ شوقا الى ذلك الحب . لأنها برغم تلك الاعتداءات السابقة على جسدها ظلت عذراء الاحساس والغريزة والعاطفة . وانها لتشعر بأنها منحت اليوم نفسها لأول مرة فى حياتها بكل معنى كلمة المنح لذلك الفتى الذى عبدته حبا . فهى الآن له بكيانها كله !

وقالت له بصوت مختلج ، وكل جارحة فى بدنها تختلج :

ـ خذنى اليك يا حبيبى . خذنى اليك كلى . واحتفظ بى دواما . فلست أريد الا ما تريده أنت !

فأجابها بصوت يفيض هياما وخشوعا :

ـ بل انت أيتها الحبيبة مليكتى . ولا قيمة لحياتى الا لكى احبك واطيعك .

وتعاقبت الساعات . ثم توقف سقوط المطر ، وساد المحطة وملحقاتها صمت كصمت القبور . والعاشقان متعلقان . ثم دوى صوت طلق نارى فوثبا على أقدامهما يرتعدان !

وكان الوقت قبيل الفجر . فلماذا اطلقت هذه الرصاصة ؟ . اتراه زوج سيفيرين تعقبهما بمسدسه ؟

ومشى جاك الى الباب ليتبين جلية الخبر . فرأى أشباحا ، وسمع وقع خطوات ثم صوت روبو يستحث الحراس على مطاردة ثلاثة أشخاص رآهم بعينيه يسرقون فحما . فأسرع الى سيفيرين يقول :

ـ تعالى . لا ينبغى ان نمكث هنا . فانهم سوف يفتشون هذه العريشة بالتاكيد !

ومع هذا لم يفترقا الا بعد ان تعانقا وتبادلا قبلة اخيرة . ثم تسللت سيفيرين من جهة المخزن ، وتسلل جاك من الجهة الأخرى . وحالفهما الحظ لأن روبو وفرقته كانوا متجهين الى العريشة مباشرة . ثم سطت انوار انفوانيس على المكان الذى كان جاك مضطجعا فيه مع سيفيرين منذ دقائق . ولم يسفر البحث عن شىء فعادوا بخفى حنين !

وقابل جاك فى طريقه وقاده بيكيه يلبس بنطلونه وهو ماش يسب ويلعن ، فساله عما دهاه فقال :

ـ لا تسالنى بالله ! . فان هؤلاء الملاعين من الحراس ايقظوا بصياحهم سوفانيا شقيق فيلومين . فسمعنى وانا مع شقيقته فى الطابق الأسفل ، فهبط الينا بقميص النوم . ولم يتسع الوقت لى الا بالفرار من النافذة وبنطلونى فى يدى ... الا تسمع ؟

ودوت أصوات عويل امراة تختلط به شتائم رجل !

ـ انه يضربها بالكرباج مع انها فى الخامسة والثلاثين من عمرها !

ـ ولكنى ظننت يا بيكيه أن الرجل وطن نفسه على علاقتها بك فأصبح لا يثور الا اذا ضبطها فى أحضان رجل آخر !

ـ انه رجل غير مفهوم فهو أحيانا يغضى ويتجاهل ، وأحيانا أخرى يثور . ولكنه على كل حال يعزها كثيرا ولا يطيق فراقها . والآن هيا بنا الى أسرتنا فى الاستراحة لنستريح قليلا قبل استئناف العمل !

وتوجه الرجلان الى الاستراحة ، وكان سريراهما فى غرفة واحدة . وبعد عشر دقائق كانا يغطان فى النوم !

ومنذ تلك الليلة امست مقابلات العاشقين مناسبات سعيدة غاية السعادة لكليهما . وكانت اسوا الليالى لهما الليالى القمرة . واستمر

الحال على ذلك طوال شهرى أغسطس وسبتمبر . وكم من ليلة رائعة فاجأهما الفجر وهما متعانقان لا يشعران بمرور الوقت ، أو يكون النوم قد تسلل الى جفونهما الى أن يوقظهما صفير القطارات !

ولما بدأت الرطوبة صارت سيفيرين تأتى متدثرة بمعطف كبير تلتف به هى وجاك فكأنهما جسد واحد . وكان مخدع غرامهما هو عريشة الآلات فى زقاق الفحم . وصار جاك يستعمل قطعة كبيرة من الحديد يغلق بها الباب من الداخل وفى ذلك المخدع سخرا من أعاصير نوفمبر العاتية !

ولكن منذ الليلة الأولى والرغبة تساور جاك فى أن يخلو الى حبيبته فى بيتها . فى ذلك المسكن الصغير اللطيف الذى كانت تبدو فيه لعينيه مخلوقا آخر أشد فتنة وأعظم سحرا . كانت تبدو فيه لنظره لا العشيقة الخالعة الازار بل الزوجة المتصونة . ولكنها كانت تأبى ذلك ، لا خوفا من فضول الجيران فقط ، بل صيانة لفراش الزوجية الذى بقيت فى أعماقها قدسيته بالرغم من كل شيء !

وفى يوم من أيام الاثنين التى يدعى فيها باستمرار للغداء على مائدتهما ، وكان روبو قد اعتذر عن الحضور لطارىء من طوارىء العمل ، دفعها جاك بيده مازحا فأوقعها فوق السرير . وحدث الباقى كنتيجة آلية بحكم العادة . والواقع أن ما فى الظروف من مخاطرة ومغامرة أضاف عنصرا جديدا الى عناصر متعتهما المألوفة .

وبعد ذلك لم تجد مبررا لمعارضته فى رغبته . ولا سيما أن الشتاء أقبل . فصار يقضى ليالى الخميس والسبت فى فراشها . وكان الخطر المحيط بهما شديدا فلم يجسر على رفع الصوت أو احداث أى حركة حتى لا يتنبه الجيران . فأضاف ذلك نشوة الى غرامهما . وبين الحين والحين كان الشوق يستبد بهما الى تذوق لذة الغرام فى العراء وتحت برد الشتاء فيتلاقيان فى عشهما الأول . فان ليلة غرامهما الأول فى العاصفة كانت أعز ذكرياتهما !



وانقضت أربعة شهور منذ جرفتهما عواطفهما الملتهبة

المكتومة . ولم تهدأ أشواقهما ، وتفـــانى كل منهما فى صــاحبه لا تخالطه شـــائبة من الأنانية . وقد أصبح جاك واثقـــا كل الثقة بأن شذوذه الاجرامى قد انقضى الى غير رجعة ، لأن شيئا من ذلك لم يخطر بعقله فى تلك المدة !

فهل كان التمتع الجسدى أقوى من شهوة القتل عنده ؟ أم ان ذلك الوحش الآدمى قد اتزنت فيه أخيرا كفا الموت والرغبة ؟

ومهما يكن من شيء فان جاك كان شابا بسيطا غير متعمق . وكم من مرة تذكر وهو بين ذراعى سيفيرين تلك الجريمة التى أقدمت عليها والتى قراها فى عينيها وهما جالسان في الحديقة العامة بميدان « الباتنيول » . انه الآن لا يشعر بأى فضول لمعرفة تفاصيل ذلك الموضوع . أما هى فكانت على العكس تعذبهـــا الرغبـــة فى الاعتراف له بكل شيء . وكان يعلم هذا ويحسه . فحينما تضمه الى صدرها بشدة أعنف من المعتاد كان يعلم أنها تموج بسرها المكنون وتتوق الى التخلص منه .

كانت تريد أن تتكلم ولكن جاك كان يبادر فيغلق فمها بقبلاته . لأنه لم يرد أن يقوم فيما بينهما شيء غريب قد يغير طعم سعادتهما . ويبدو أنها فطنت الى مخاوفه فعدلت عن ذلك الاتجاه وعادت سيرتها الأولى مخلوقة لطيفة غزلة خلقت للحب !

اعتراف خطير

استعادت سيفرين مرحها ونضرة صباها التى امتازت بها وهى فتاة . أما روبو فازداد بدانة وشرودا ، وبدت عليه الكهولة .. وفى الشهور الأربعة التالية أصبح لا يهنأ له طعام الا اذا كان على المائدة جاك لانتييه . ولكن هذه التسلية لم تعد تكفيه بمرور الوقت . فكان عقب انتهائه من الطعام ينهض متعللا بحاجته الى استنشاق الهواء ثم يخرج ويتركهما فى خلوة !

كان قد تعود فى المدة الأخيرة أن يقضى الوقت فى مقهى صغير هو المقهى الذى يجلس فيه دائما السيد كوش الضابط القضائى . ولم يكن روبو أخا خمر . ولهذا لم يكد يتورط فى احتساء أكثر من كأس واحدة من الروم . غير انه بدت عليه فجأة أعراض الولع بالمقامرة . ولم يعد يبدو فى مرحه المألوف الا حينما يلعب شوطا وراء شوط بغير انقطاع . وصار الربح مسألة طمع جنونى عنده حتى وصل الى الدرجة التى يقامر فيها بكل شىء ! وليس معنى ذلك ان عمله تأثر بهوايته الجديدة ، فانه لم يكن يبدأ اللعب الا بعد الفراغ من نوبة عمله . وفى الأسابيع التى يعمل فيها ليلا كان يعود من المقهى فى الساعة الثالثة بعد الظهر !

ولم تحاول سيفرين أن تعاتبه على كثرة تغيبه عن البيت . ولكنها قلقت لضيق صدره وتجهمه ، وهى أعراض ناتجة عن فترات النحس والتورط فى الدين !

وفى ذات مساء نشب الخلاف علنا بين الزوجين ، فهى وان لم تكن تكرهه بالمعنى المعروف بدات تشعر بصعوبة معاشرتها اياه ، وبانه عبء على حياتها وسعادتها !

وليس معنى هذا انها كانت تشعر بالخزى من حياتها الزوجية ، فالذنب ذنبه لأنه هو الذى دفعها الى ذلك دفعا !

وبعد هذا التباعد بينهما ، كان من الطبيعى أن ينشد كل منهما التسلية والسلوان فى الاتجـــاه الذى يروقه . فتعلق هو بالورق وتعلقت هى بعشيقها !

وكان أكبر ما غاظها هو الفقر وهبوط مستوى المعيشة نتيجة لخسائره المتلاحقة فى القمار . فلم تكن تجد ما يكفى لشراء الزينة والعطور . وفى ذلك المســـاء بالذات كانت الشرارة التى اشعلت المشاحنة رغبة أبدتها فى شراء حذاء جديد . وكان فى تلك اللحظة ممسكا بسكين يقطع بها لقمة ، وكانت هذه السكين بالصدفة هى المدية الكبيرة التى استخدمها فى جريمته . فقال لها بجفاء :

ـ ليس عندى نقود أعطيك اياها لشراء حذاء !

فلما كررت عليه الطلب بالحاح كرر عليها هذا الجواب بمزيد من الغلظة . فأشارت بأصبعها الى أرض الغـــرفة من تحتهما حيث ترقد أشباح الجريمة ، فاكفهر وجه روبو وسقطت المدية من يده ، فأفزعها منظره . ثم قال لها :

ـ أفضل أن تتعفن هذه النقود ، وأن اقطـــع يدى قبل أن أمسها ! . ثم أنا أحذرك ان كنت حريصة على حياتك الا تأخذى فرنكا منها فى غيابى ! .. دعيها مدفونة فهى ميتة بالنسبة لنا !

وتعاقبت المشـــاحنات بعد ذلك . وكان سببها بيت ضيعة « موفراس » ولماذا لا يقدم أحد على شرائه . وراح كل منهما يتهم الآخر بأنه السبب فى ذلك البوار . وبذلك انتهى عهد السلام فى ذلك البيت ، وأصبح كل شىء صـــالحا لأن يكون سببا فى مشاجرة . حتى غدت حياتهما جحيما !

وزاد الطين بلة تجدد هجمـات مدام لبلو . لأن فيلومين عشيقة بيكيه تصالحت مع سيفرين . وكانت هذه هى البادئة بالتودد اليها .

فقد التقي بيكيه بالعاشقين ذات ليلة وهما وراء كومة فحم . فتعين على سيفيرين ان تكسب مودة العشيقة حماية للسر . ففضبت مدام ليلو لهذه الصداقة الجـــــديدة بين حليفتها القـديمة فيلومين وعدوتها !

ولم تجد سيفيرين بعد ذلك بدا من تدبير خطة للتخلص من هذا الجو ، ولو بعض الوقت . فتعللت بأنها أصيبت بالتواء في ركبتها ولابد لها من علاجها لدى اخصائى فى باريس يوما كل أسبوع . فكانت تسافر يوم الجمعة فى أول قطار يقوده جاك ثم تعود معه فى قطار الليل !

وفى الإسابيع الأولى كانت تحكى لزوجها ما قاله لهـــا الطبيب وما أشار به ، وهو كله من تلفيقها طبعا . ولكن اتضح لها انه لم يكن يلقى بالا الى ما تقول فوفرت على نفسها مشقة التأليف والرواية . واخذت تسائل نفسها : ترى هل يعلم الحقيقة ؟ . وما اعجب ان يغضى زوج عن خيانة تتكرر تحت سمعه كل يوم باصرار وتلذذ ، وهو الذى اعمته الغيرة فأقدم على القتل ! ولهذا رجح عندها انه لم يكن يعلم .

وفى ذات ليلة شديدة البرودة من ليالى ديسمبر ، عاد روبو الى البيت متأخرا . وكان اليوم التالى يوم جمعة فأعدت سيفيرين الملابس التى سترتديها فى السفر منذ المســـاء . ثم نامت قبل عودته من الخارج . وسرعان ما استغرقت فى النعاس سعيدة باليوم الذى ستقضيه فى باريس بين أحضان عشيقها !

وفى نحو الساعة الثالثة صباحا ، استيقظت على صوت غير مألوف هو صوت تكسير خشب . فخيل اليها أن شخصا يحاول اقتحام باب البهو بالقوة والجمها الخوف لحظة ، ثم نهضت فتدثرت بالرداء وخرجت حافية للقدمين من المخدع الى حجرة المائدة فوقع بصرها على منظر بهتت له !

كان زوجها هناك راكعا على الأرض وقد أفلح فى رفع القطعة

المعمودة من الخشب . واستقرت الى جواره حقيبة تلقى ظلالا ضخمة على الجدار . وكان خداه متوهجين وهو يحملق فى الحفرة بعينين زائغتين وقد ارتسمت على وجهه تلك المخايل التى راتها حين اقدم على جريمته فى القطار . ثم دس يده فى الحفرة واخرج اوراق النقد والساعة والكيس الذى به النقود الذهبية !

وانطلقت من فمها صرخة ، جعلته يلتفت نحوها مذعورا . ويبدو انه لم يعرفها لأول وهلة ، أو ظنها وهى فى ردائها الأبيض الناصع شبحا . الى أن سألته بصوت متهافت : « ماذا تصنع ؟ » . فزمجر روبو ولم يجب !

وكان واضحا أن وجودها يضايقه ، وأنه يود لو رجعت الى فراشها . ولم تسعفه الكلمات فنهض لكى يرغمها على تنفيذ مشيئته باللكمات واللطمات !

وقالت له : « الآن عرفت انك لا تعطينى ثمن حذاء اشتريه لأنك فى حاجة الى مبالغ طائلة لتسد ديون مقامرتك ! » .

فاستولى عليه غضب جنونى . واخذ يسائل نفسه : ترى هل تريد أن تمنعه من التمتع بلذته الوحيدة فى ظروفه الراهنة ؟

واستبقى الحافظة التى بها الثلاثمائة فرنك ذهبا ، ثم دفن الأوراق المالية . وأعاد قطعة الخشب الى مكانها ، ونهض فالتفت نحوها وصاح :

ـ لا تضايقينى ! . دعينى أفعل ما أشاء . هل تريننى سألتك مرة واحدة كيف تقضين وقتك فى باريس ؟

وهز كتفيه ثم خرج من المسكن واغلق الباب !

هو اذن يعلم ويغضى ! . وهو الذى اقدم على القتل يوما انتقاما لزلة أهون كثيرا .. وزلتها قبل أن تصبح امراته !

فى هذه المرة عولت سيفيرين أن يكون حظها من باريس ليلة

غرام كاملة لا بضعة من نهار كما تعودت فى يوم الجمعة من كل اسبوع !

وكان وصول القطار الى باريس فى الساعة العاشرة والنصف مساء لعاصفة عاتية احتجزته ساعات فى روان . وهناك تناول الركاب طعاما حيثما اتفق ، ومن هناك بعثت سيفيرين الى زوجها برقية تؤذنه بانها ستعود فى قطار الليلة التالية !

انها ستظفر بين احضان عاشقها بأول ليلة فى كنف الطمانينة ، لا تروعهما الهواجس !

وحينما غادر القطار محطة مانت خطرت ببال بيكيه فكرة . فزوجته فيكتوار طريحة الفراش فى المستشفى لشرخ فى عقبها ، ولما كانت فى باريس على حد تعبيره أسرة وثيرة كثيرة ترحب به لقضاء الليلة ، فمن المستحسن أن تستخدم مدام روبو المسكن لمبيتها . فهى تعرفهم جيدا ، ويمكن أن تشعر فيه بالراحة أكثر من أى فندق . فتلقف جاك هذه الدعوة لأنه كان لا يدرى أين تنزل عشيقته !

ولما نزلت سيفيرين من القطار . اشار عليها ان تقبل المفتاح من بيكيه ما دام المسكن خاليا ، غير ان ابتسامة بيكيه ذات المغزى اشعرتها بالحرج فقالت :

ـ كلا ! . سابيت عند بنت عم لى !

فضحك بيكيه ملء فمه وهو يلح عليها ويضع المفتاح فى يدها قائلا :

ـ ان الفراش عندنا خير من فراش بنت عمك فهو على الأقل ناعم وثير ، ويتسع لأربعة اشخاص !

ونظر اليها جاك يتوسل فقبلت المفتاح . وفيما هى منصرفة قال لها هامسا :

ـ انتظرينى . فساحضر !

وكانت المسافة بين المحطة والمسكن قريبة ، ولكن المشى كان شاقا لتراكم الثلج . ووجدت الباب الخارجى مفتوحا فصعدت من غير

ان يلتفت أحد لدخولهـــا ، لأن البواب كان لدى جار له يلعب الدومينو . ولما وصلت الى الطابق السادس فتحت باب المسكن واغلقته بحذر !

وشعرت سيفيرين بالخوف برهة فى الظلام ثم تحسست مواضع الأشياء الى أن عثرت بالثقاب فأشعلت الشمعة ، ثم القت نظرة عصبية على الأشياء من حولها لتتأكد انها وحدها . فتذكرت جميع تلك الأشياء ، من المائدة المستديرة التى تناولت عليها الطعام مع زوجها آخر يوم الجريمة . ثم ذلك الفراش الذى شهد ضربها وتعذيبها على اثر زلة لسانها !

كان كل شيء فى مكانه لم يتغير ، كأن هذه الأشهر العشرة لم تنقض منذ آخر مرة كانت فيها هناك !

وخلعت سيفيرين قبعتها . ولكن عندما همت بأن تخلع معطفهـــا ارتجفت لأن الحجرة بطبيعة الحال كانت خالية من التدفئة . فانصرفت بـكل حماسة وفرح الى اشعال النار فى المدفأة . وكيف لا تفرح كل جارحة فيها وهى تشعر بأنها تعد ذلك المخدع لليلة غرام ، أشبه ما تكون بليلة زفاف جديدة الى حبيب العمر . ليلة تمر بغير خوف وبغير تقيد بموعد لليقظة والمنام . فقد طال انتظارهما لمثل هذه الليلة منذ زمن بعيد . فهى أشبه فى نظرها بالمغامرات الخيالية التى تقرؤها فى الروايات !

وبعد أن اشتعلت النار ، رتبت الكراسى . ثم فتحت خزانة الثياب واخرجت مفارش نظيفة وضعتها على السرير ، وكان المسكن به كل شيء ما عدا الطعام . اما الشمع فلم تجد منه واحدة اخرى سوى التى أشعلتها . ولكنها هونت على نفسها الأمر لأن النافذة الى جوار الفراش ، ولا لزوم لاستمرار الضوء .

وعندئذ بدأ تتساءل ما الذى أخر جاك . واذا بها تسمع خشخشة خفيفة فى الباب كالتى تصـــدر عن القطط حين تجمش الأبواب بأظافرها ففهمت واسرعت تفتح الباب فاذا جاك وفى يده كعكة

كبيرة وزجاجة من نبيذ ملقا . فالقت بذراعيها حول عنقه وهى تهتز بالضحك المكتوم قائلة فى صوت خافت :

ـ ما أحلاك أيها الفتى ! . لقد فكرت فى كل شيء !

فحذرها من ارتفاع الصوت أو أى ضجة ، لأن آل « دوفرنى » فى الطابق الذى تحتهما ساهرون ولديهم زوار ، فاجابته بضمة عنيفة الى صدرها ثم غطت وجهه بقبلات صامتة !

ووضعت بعد ذلك طبقين على المائدة وسكينين وكوبين . وكلما صدر عن ذلك صليل خفيف توقفت لتكتم الضحك ! . ثم جلسا يلتهمان الكعكة الساخنة !

ولما قالت انها عطشانة صب كأسين من النبيذ ، وسرعان ماتوردت وجنتاها ، وساهمت النار المشتعلة فى المدفأة من وراء ظهرهما فى رفع حرارة جسديهما الى أن دوت صفارة القطار ، فهمس قائلا وهو يقبلها :

ـ هذا قطار الثانية عشرة الا عشر دقائق !

فتعلقت برقبته ورفعت اليه وجهها واغلقت عينيها ، فاطبق بفمه على فمها الممدود !

وقال لنفسه : « ان هذه ليست سيفيرين الوديعة الهادئة المنقادة التى عرفتها فى مقابلاتنا الأولى ! » .

ان كل يوم مر بهما بين أحضان جعلها تنمو فى الاحساس ! . لقد استيقظت بين ذراعيه من براءتها العذرية التى لم يستطع أن يخرجها منها ذلك القاضى الشيخ ولا ذلك الزوج الجلف . وكان عهد جاك بها فى أوائل غرامهما انها تجد متعة فى الاستسلام له ، ثم صارت تشعر نحوه بالرضا والامتنان . وبمرور الأيام بعد ذلك صارت تشعر بنار تسرى فى جسدها كله شوقا اليه فلا تطيق صبرا عنه . انها الآن تريده مثلما يريدها . وتطلبه كما يطلبها .

ولما تنبها من غشيتهما المنتشية تلفتا حولهما فقال لها :

ـ لقد انطفأت الشمعة .

فتضاحكت كمن لا يعنيها الأمر فى شيء ثم طوقت عنقه بذراعيها ، واخذت تغمره بالقبلات !

وكان الضوء الخافت من النافذة ينم عن ملامحه وملامحها . وقد سكن كل شيء وصمتت الموسيقى الصادرة من مسكن دوفرني وكأنما استسلم السكون كله للنعاس فيما عداهما !

وفى نشوتها هذه ، استبدت بها الرغبة فى الاعتراف له ! .. كانت هذه الرغبة قد عذبتها طويلا ، ولكن هذه هى تتحفز فى هذه اللحظة للانطلاق . وارتجف بدنها وشعرت بانها على ابواب النشوة العليا حين تفضي له بكل مافيها فتذوب بوجودها فى وجوده ، وتحس انها اصبحت هى وهو شيئا واحدا !

وخرج صوتها خافتا عميقا وهى تقول له :

ــ حبيبى .. انت لا تعلم !

وكان جاك ينظر الى السقف ، ويعلم تمام العلم ماذا توشك أن تقول . وقد ظل حتى هذه اللحظة يتحاشى اعترافها خشية أن يثير فى نفسه داءه القديم !

اما الآن ، فشعر بالاطمئنان والسلام يحيطان به من كل جانب ، فلم يجد فى نفسه القدرة على أن يدير اليها وجهه فيغلق فمهـــا بقبلة حانية . وكما يستسلم الرجل السعيد بعد مائدة حافلة لأجنحة الكرى ، استسلم لما ستقول . واذا به يراها تتردد قليلا ثم تقول شيئا آخر !

ــ يا حبيبى انت لا تعلم أن زوجى يدرى علاقتنا !

ــ حقا ؟ انه باستمرار غاية فى الرقة معى . وقد شد على يدى هذا الصباح فى مودة !

ــ اؤكد لك أنه يعرف كل شيء . وربما كان فى هذه اللحظـــة بالذات يتمثلنا كما نحن الآن .

وسكتت لحظة احتضنته فيها بعنف يحمل كل معـــانى التدله والتحدى والحقد ، حتى اذا شفت بعض ما فى نفسها من الوجد ، تنهدت وقالت له :

ـ آه لو تعلم كم اكرهه !

فدهش جاك . لأنه ثم يشعر بالكراهية نحو روبو بحال من الأحوال . ثم سالها : « لماذا تكرهينه ما دام لا يقف فى سبيلنا مطلقا ؟ » .

ـ انى اكرهه ! وكم يعذبنى أن أعيش معه . وكم يسعدنى ان اهرب وابقى معك الى الأبد !

فاحتضنها جاك وابقـــاها الى صـــدره طويلا . وبغير ان ترفع سيفيرين شفتيها عن عنقه همست قائلة :

ـ يا حبيبى . هناك شىء آخر لا تعلمه ! . ان ما تجهله هو ...

وقطع هو كلامها قائلا : « اننى أعلم كل شىء يا حبيبتى ! » .

فقالت له : « ربما تكون قد استنتجت شيئا ، ولكنك لا تعلم الحقيقة كلها ! » .

ـ بل أعلم انه فعلها من اجل المال !

فضحكت ضحكة عصبية ، وفى صوت خافت كطنين النحلة راحت تقص عليه حديث طفولتها الشقية فى كنف القاضى جرانموران . ولم تخف عنه شيئا من حقيقة العلاقة بينهما . الى أن قالت :

ـ تصور يا حبيبى انه فى هذه الغرفة بالذات ، فى شهر فبراير الماضى ، اكتشف زوجى الحقيقة فجأة بسبب فلتة لسان بدرت منى وانا شاردة ، عن خاتم على شكل ثعبان كان القاضى قد اعطانيه يوم افتصبنى . وكنت قد زعمت لزوجى أننى ورثته عن أمى . ولا تستطيع يا حبيبى أن تتصور ما فعله بى حينئذ . ولكنى أعذره فانه ولا شك كان يحبنى حبا شديدا على طريقته الخاصة . وقد هم بأن يقتلنى وهو فى جنون الغيرة . ولكن لا أسمح لك يا حبيبى بأن تحبنى اقل من حبه لى . اننى أريدك ان تقتلنى ان علمت اننى على خيانة لك !

ـ اقتلك ؟ . ولماذا ؟ ان ماضيك لا يعنينى ، فقد ولدنا كلانا من جديد يوم تحاببنا . اما انك زوجة روبو فشىء لا قيمة له !

فمدت اليه شفتيها وقالت له من خلال قبلة :

ـ اننى لم احب سواك مطلقا . اما الآخران فلم يكن لهما وجود ، لأنى لم أعرف معهما للحب طعما ولا معنى !

وبدات تثيره بمداعباتها ، حتى اضطر ان يمسك بيديها ليكفهما ، ثم ابتعد عنها بمقدار شبر ليبعد حرارة جسمها عن حرارة جسمه ، حتى يسمع بقية الاعتراف ، وقال لها :

ـ على مهلك لحظة . ماذا صنع بعدئذ ؟

ـ قتله !

ثم غطت وجهها بيديها حتى لا تقع عليها نظـــراته واستطردت فقالت :

ـ لقد أرغمنى أن اكتب رسالة الى القاضى أخبره ان يركب القطار ولا يظهر نفسه قبل محطة روان . وكنت فى الطريق الى روان ارتعد خوفا مما ســـيحدث . واقلقتنى على الأخص امراة بدينة متشحة بالسواد جلست هناك فى الركن لا تفتح فمها بـكلمة ، فخيل الى انها تقرأ افكارنا . فأغلقت عينى وتصنعت النوم . وكان هو جالسا الى جوارى لا يبدى حراكا !

ـ ولكن كيف قتلتماه وانتما لم تكونا معه فى ديوان واحد ؟

ـ لقد دبر زوجى الأمر باحكام . ففى روان يقف القطار عشر دقائق كاملة ، فأجبرنى على النزول معه والتظـــــاهر بالمشى على الرصيف للتريض ، الى أن وصلنا أمام ديوان القاضى . فلما رآه تظاهر بالدهشة التامة . وكان الزحام شديدا على الرصيف لكثرة ركاب الدرجة الثالثة والثانية المتوجهين لحضور مهرجان شعبى فى الهافر . ولما بدأ الحمالون يغلقون الأبواب عزم علينا القاضى أن نركب فى ديوانه ، فتمنعت أنا محاولة ان أمنع حتى آخر لحظـــة وقوع الكارثة ، متعللة بوجود حقائبنا فى الديوان الآخر ، فقال : ان أحدا لن يفكر فى سرقة الحقائب . وتستطيعان أن تعودا اليها بعد نزولى فى محطة بارنتان . وبدا على وجه زوجى أنه يفكر فى الذهاب لاحضار الحقائب بنفسه . وفى هذه اللحظة دوت الصفارة فغير رايه

ودفعني الى داخل الديوان ، ثم ركب ورائي واغلق النافذة والباب . ولست ادرى كيف لم يفطن احد بالمصادفة الى ذلك ، كما اتضح من شهادة الشهود . ولعل السبب شدة الزحام المتناهية . وغادر القطار المحطة .

« ولن انسى ما حييت الدقيقة الأولى فى ديوان القاضى . فقد دارت راسي وخيل لى اننا لا شك مقبوض علينا لنلقى جزاءنا المحتوم ! وحاولت أن أهون على نفسى هذه الحيرة بان أقنعها بأن زوجي لا شك سيعدل فى آخر لحظة عما انتواه ولكنى أدركت من طريقة كلامه مع القاضى انه وطد العزم على اتمام ما اعتزمه . مع انه كان يتكلم بكل بشاشة وسرور ! . لقد كانت النظرات التى يرمقنى بها بين الحين والحين تجمد الدماء فى عروقى بما تنطق به من عزم ومضاء !

« وبعد ان قطع القطار نحو ميلين ، وعند موضع سبق له أن تخيره لاتمام الجريمة بعناية ، وانى لأدهش من نفسى الآن كيف لم أطلق لحظتها صرخة مدوية أو اجذب حبل الخطر فيقف القطار ويسرع الينا الحراس والملاحظون . ولكن الواقع اننى كنت كالمشلولة من فرط الفزع . ولا اكتمك اننى فى قرارة نفسى كنت ارى زوجى على حق ! » .

ـ وهل ساعدته مساعدة ايجابية فى عملية القتل ؟

ـ كنت جالسة فى الركن ، وزوجى جالس بينى وبين القاضى ، يتحدثان عن الانتخابات القادمة . وكان زوجى ينظر بين اللحظة واللحظة الى الخارج من النافذة ليعرف أين وصل بنا القطار . وكان ضوء القمر الباهت يرسل اشعته فتبينت مجموعات ملتفة من الأشجار . والقطار منطلق بأقصى سرعته . ثم سطعت فى النافذة انوار قوية وسمعت الضجة التى تدل على مرور القطار بأبنية محطة صغيرة لا يقف بها فى طريقه . فأدركت أننا عند قرية « ماروم » على بعد ستة أميال من روان . وان المحطة التى تليها هى مالوناى . وتتلوها بلرنتان . فأى مكان يا ترى تخيره زوجى لاقتراف الجريمة ؟

ولبثت انتظر الى ان مررنا بمحطة مالوناى فادركت ان زوجى يريد أن يقترف الجريمة اثناء مرور القطار بالنفق الذى بينها وبين بارنتان . ثم أطلقت القاطرة صفيرا حادا وبدأت تدخل النفق وعلت الضجة المعهودة عندئذ .

« انى لأشعر بالرعدة تسرى الآن فى أوصالى وأنا أتذكر تلك اللحظة ، مع انه لا خوف علينا الآن من شىء ! » .

ـ لقد وقع الامر اذن كما شهدت به أنا أمام المحقق . هجم عليه وطعنه ؟

ـ نعم . كان النفق طويلا استغرق عبوره بالقطار ثلاث دقائق . وكان القاضى قد توقف عن الحديث بسبب ضجة النفق . وفى اللحظة الاخيرة تخلص زوجى من جموده فجاة ووثب عليه ، وكان فى تلك اللحظة ينظر الى النافذة متطلعا الى ظهور فوهة النفق وانفساح الافق . وفغر الرجل فمه دهشة . أما أنا فتسمرت فى مكانى . واظن العملية لم تستغرق أكثر من ثانيتين ولكنى احسست كأنهما لا تريد أن تنتهى . ورغبة منى فى الانتهاء من هذا العذاب هجمت على ساقى القاضى لأقيد حركتهما فلا يقاوم . ثم سمعت حشرجته .

« رباه ! . انها لتدوى الآن فى أذنى ! . ورأيت ضيعة موفراس من النافذة فعلمت انه لم يبق على محطة بارنتان سوى خمس دقائق على الأكثر . وها هى الجثة فوق المقعد والدم ينفجر منها . وها هو ذا زوجى يمسح الدم عن المدية بمنديل . ولو بقينا حيث كنا لقبض علينا فى بارنتان . وأخيرا وضع زوجى المدية فى جيبه واستعاد رباطة جأشه ثم فتش جيوب القاضى فانتزع منها الساعة والنقود ، ثم حاول أن يلقى به من القطار من غير أن يلوث ملابسه بالدماء . وصرخ يستحثنى لكى أساعده فى ذلك ، ولكنى كنت خائرة القوى ، فجعل يجره جرا من رجليه الى أن القاه ، ثم تناول البطانية التى كان يغطى بها رجليه فمسح بها الدم وطوحها وراءه . وانفردنا فى الديوان مع بركة الدم على الأرض وفوق المقعد . ثم رأيته يخرج

من الباب ويتعلق بافريز العربة ويدعونى أن أتبعه بسرعه ان لم تكن بى رغبة شديدة للذهاب الى المقصلة !

« ثم انتقل الى التهديد بأن يلقينى تحت عجلات القطار ! . ورأيت الجنون يطل من عينيه ، فاذعنت وانا ارتجف رعبا ! .. وجعلنا ننتقل كالقردة والهواء يضرب وجوهنـــا وثيابنا وشعرنا ، واضواء محطة بارنتان تبدو لعينى من بعيد ، وهو يجذبنى ويصرخ متعجلا . الى أن اجتزنا العربات الثلاث ووصلنا الى ديواننا . فارتميت على المقعـد كالمغشى على .

ولم افق الا على صوت زوجى يتحدث من نافذة الديوان مع ناظر محطة بارنتان ويشد على يده . حتى اذا غادر القطار تلك المحطة ، ارتمى كذلك على المقعد منهوك القوى ولم ينطق بحرف واحد الى ان وصلنا محطة الهافر .. آه يا حبيبى كم تعذبت ! » .

ثم دفنت رأسها فى صدره لتبعد شبح تلك الآلام ، غير انه رفع وجهها اليه وحدق فيها قائلا :

ــ مهلا ! . خبرينى هل أحسست وانت جاثمة على رجليه انه يموت ؟

وصعدت الدماء الى رأسها ، بينما احمرت عيناه واصبح مشغوفا بـكل دقيقة من تفاصيل الجريمة :

ــ تقولين انك سمعت صوت السكين وهى تغوص فى رقبته ؟

ــ اجل لقد كانت حشرجة فذة .

ــ حشرجة ؟ أواثقة انت أنه صوت حشرجة لا صوت تمزيق مثلا ؟

ــ بل حشرجة . واثقة من هذا تماما .

ــ وبدنه . هل اختلج بعد ذلك ؟

ــ ثلاث مرات من الفرع الى القدم . كل واحدة اضعف من التى قبلها .

ــ وماذا كان شعورك وانت تحسين به يموت من الطعنة ؟

ـ لست أدرى . ولكنى على كل حالّ لم أتألم له .
ـ الم تشعرى بلذة ؟
ـ أوه كلا .
ـ اذن ليتك تستطيعين ان تخبرينى كنه شعورك .
ـ لست أدرى يا حبيبى . فانى لا أستطيع أن أصوغ هـــذا الشعور فى كلمات . فهو شعور غريب يحملك بعيدا ، ففى تلك الدقيقة الواحدة عشت حيـــاة أعمق من كل ما عشته فى عمرى كله .

فأطلق صيحة كصيحة الحيوان الجريح ، مكتومة عميقة ، وبلغ هياجه أشده فتناولها وكأنه الاعصار فى رغبة عميقة لم يشعر بمثلها من قبل . ومن عجب أنها أيضا تناولته فى رغبة ايجابية ، فامتلك كل منهما الآخر فى حركة تلقائية مشتركة تلاقى فيها أقصى الحب بأقصى هزة الموت .

وكانت نشوتهما السريعة المشتركة أشبه بالنشوة الأليمـــة التى تشعر بها الحيوانات التى يعنى الحب عندها انتهاء حياة الذكور .

ودقت الساعة الثالثة صباحا .

الصراع

ابقاها جاك نائمة فوق ذراعه مدى ساعة كاملة حتى سرى الخدر شيئا فشيئا الى ذلك الذراع . وكلما حاول أن يغمض عينيه امتدت يد خفية من جوف الظلام فشدتهما شدا . وكان كل ما فى الحجرة غارقا فى تلك الظلمة فلم يتبين منها شيئا سوى اطارى النافذتين .

وبالرغم من اشتداد التعب والاعياء عليه فقد احتفظ ذهنه بأوج نشاطه ، وراح يقلب الأشياء من وجوهها المختلفة . فكلما انتوى أن ينام راودته هذه الصور والأفكار فأطارت النوم .

وامام عينيه راحت جميع تفاصيل القتل تتراءى وتتعاقب ، مرارا وتكرارا . وراح السكين يغوص فى الزور المحشرج ثم ينتفض الجسم كله ثلاث مرات ، وتغادره الروح فى فيض من الدم ، خيل اليه أنه يتصبب على راحتى يديه .

عشرين مرة وثلاثين وأربعين غاص السكين وانتفض الجسم . آه لو استطاع أن يرضي رغبته مرة واحدة فيطعن بالسكين طعنة كتلك الطعنة النجلاء ! . آه لو استطاع أن يخبر هذا الشعور الذى ينجم عن هذه الضربة فيحيا فى دقيقة واحدة حياة أعمق من حياة عمره كله !

ولما اشتد خدر ذراعه خطر له ان ثقل رأس سيفيرين فوقه ربما كان هو الذى يذود النوم عنه ، وفى رقة ازاحها من فوقه وأرقدها بجواره . فأحس بالراحة برهة وظن ان النوم سيوافيه اخيرا . ولكن بالرغم من جهوده الصادقة جعلت تلك اليد الخفية تمتد من جوف الظلام كلما أغمض عينيه فتشدهما شدا ثم تتراءى له الجريمة والدم يتدفق منها كالينبوع . فعدل عن المقاومة واستلقى على ظهره

مستسلما لتلك الرؤيا . وأحس فى الوقت نفسه أن ذهنه يستعر بالنشاط عشرة أضعاف طاقته العادية ، وأن كل جزء من آلته الدقيقة يدور بأقصى سرعته . فذلك الخيال الذى يطوف به الآن لازمه منذ صباه . وكان فى الشهور الأخيرة ، وهو فى حميا اتصاله الجنسى العنيف بسيفيرين ظن أنه تغلب على رغبتـه الشريرة . فاذا بهـذه الرغبة تعود اليه الآن فجأة أعتى من ذى قبل ، وفى أوج عنف ذلك الاتصال الجنسى ، فها هم الآن راقدان عاريين جنبا الى جنب .

وتململ فى مكانه ليتباعد بينه وبين ملمسها المحـرق ، فان موجة لا تطاق من الحرارة تسرى الآن فى عموده الفقرى وكأن الحشية التى يستلقى فوقها فراش من الجمر المتقد . فأخـــرج يده من تحت الأغطية ولكن برودة كالثلج جعلته يرتعد فرد يديه وعقدهما فوق بطنه ، ثم خاف منهما وهما طليقتان فوضعهما تحت عجيزته .

وجعلت الساعة تدق وهو يحصى دقاتها . ست دقات . الساعة السادسة . وشعر بالارتياح لبزوغ النهار آملا أن يبدد النور أشباح الظلمات المنكرة . وأدار وجهه الى ناحية النـــــافذة يترقب أولى بشائر الفجر . ولكن الثلج المتراكم أخر طلوع النهار فلم تتسلل أولى أنواره الى الحجرة الا بعد الساعة السابعة .

وفى هذا الضوء الخابى بدأت تتميز قطع الأثاث . ثم ازداد الوضوح فتبين فوق المائدة سكينا ذا نصل مدبب كان يقطع الكعكة به بالأمس . وزاد خوفه من يديه فجعل يثقل عليهما بكل جسمه وأحس بهما تقاومان ارادته لتنفذا ارادتهما . فهل تراه سيفقد سيطرته عليهما بالكلية ؟ أتراهمـــا أصبحتا فعلا يدى رجل آخر ، يدى ذلك الوحش الآدمى الكامن فى أعماقه ؟

وأشاح بوجهه لكى لا يرى السكين . فصار وجهه الى جهـــة سيفيرين التى كانت راقدة فى نوم عميق كنوم الأطفال تتنفس تنفسا عميقا منتظما ، لأنها كانت منهوكة القوى لما بذلت من مجهود جبار فى السفر وفى جوب آفاق الحب البعيدة . وكان شعرها الأسود

منسابا فوق كتفيها الناصعين .

علم الله انه يحبها حب العبادة . فحين لا تكون معه لا يشغل تفكيره شيء سواها . وها هو الآن ينظر اليها وكأنها غريبة عنه تمام الغرابة .

أجل ان ثدييها الرائعين يستهويانه . ولكن ما أعظم فزعه بذلك الاحساس الذى ينمو فى داخله ويحفزه ان يتناول السكين من فوق المائدة فيغرسها حتى المقبض فى هذا اللحم البض بين هذين الثديين الشهيين . وانه ليسمع مترددا فى أذنيه كدوى الرعد تلك الحشرجة التى وصفتها له . وانه ليرى رأى العين ارتجاف الجسم ثلاث مرات ثم يتخشب الى الأبد فى فيض من الدم .

وانه ليقاوم كى يتحرر من هذه الرؤيا . ولكن رغبته الملحة تغلبه على أمره وتدفع به الى هاويتها العمياء . وفى تمرد ظافر تحررت يداه من أسارهما ، فأدرك ان الكلمة أصبحت لهما لينفذا مشيئتهما. فبذل جهد المستميت وقفز من السرير وراح يتلمس الطريق الى ملابسه متعثرا فى ثيابها التى كانت القتها على الأرض . وفى خاطره بمجرد الانتهاء من ارتداء ثيابه ان يتناول السكين ثم يجرى الى الشارع فيقتل بها أى انسان يصادفه فى طريقه تفاديا من قتل سيفيرين فان تلك الرغبة قد استولت عليه بصورة أصبح من المحتم معها أن تجد لها منفذا الى التحقيق . وما دام الأمر كذلك فلتتحقق هذه الرغبة اذن فى شخص آخر غير تلك المرأة التى أحبها كما لم يحب فى حياته وعرف طعم السعادة كما لم يعرفه من قبل .

واهتدى أخيرا الى قطع ملابسه المتناثرة وفرغ من ارتدائها وهو يرتجف كالمحموم ثم تناول السكين وخبأها فى كمه كى يسهل عليه أن يقتل بها أول امرأة تصادفه فى الطريق . وفجأة سمع تنهدا عميقا ووسوسة فى أغطية الفراش فاكفهر لونه ونظر نحو الفراش . أجل ، هذه سيفيرين تستيقظ . فها هى تقول له :

— الى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت المبكر ايها الحبيب ؟

فلم يجبهـــا آملا ان تستغرق فى النوم ثانية . بيد انها كررت السؤال فقال :

ـ الى المحطة لمسألة ضرورية ثم أعود حالا . نامى يا حبيبتي .

وكان تعبها شديدا فأغمضت عينيها وقالت :

ـ حبيبى . كم يثقل على النعاس . قبلنى يا حبيبى .

فلم يتحرك جاك من مكانه . لا لأنه لا يشتهى أن يقطع فمها بالقبل ، بل لأنه يخشى من ذات نفسه . فقد كان واثقا انه ان اقترب منهــا ووقع بصره على جمالها الناضر العـــارى ، فستتبدد ارادته امام الشهوة الوحشية الثائرة فى أعماقه . وسيجد يده ترتفع رغم انفه فيطعنها بالسكين .

وعادت بصوت يدغدغه النعاس تلح عليه :

ـ حبيب قلبى . قبلنى . قبلنى بعنف قبل أن تذهب ...

بيد أن حسن طالعها جعل صوتها يخف شيئا فشيئا ، ثم غلبهــا النعاس على أمرها .

وتنفس جاك الصعداء ، واسرع ففتح الباب بكل حذر وانطلق يهبط السلالم كمن تطارده الابالسة .

***

وراح جاك يضرب فى الشوارع على غير هدى عسى أن يلتقى بامرأة يقتلها . فلم تصادفه فى تلك الساعة امرأة وحدها يستطيع أن يقتلها وهو آمن . ثم سطعت الشمس فاستحالت عليه المهمة . وغلبه الاعياء فذهب الى حجرته المفروشة فى شارع كادينيه بعد أن القى بالسكين في نهر السين ليتخلص من اغرائه . ولابد أنه قد مشى أميالا طويلة وهو فى هذه الحالة من الهياج . لأنه ارتمى بملابسه وحذائه فوق السرير فلم يلبث أن استغرق فى نوم عميق .

ولم يستيقظ الا بعد الظهر فبدأت ذكريات تلك الليلة تعود الى وعيه شيئا فشيئا . فقام ليتوجه الى حيث تنتظره سيفرين . واذا الساعة تدق أربع دقات .

وكانت سيفرين قد نامت الى الظهر ثم قامت فادهشها الا تجد جاك وان تكون غيبته قد طالت في مهمته الى هذا الحد . ثم اشعلت الموقد وشربت الشاى واشعلت المدفأة لتطرد الرطوبة . ونزلت بعد

ذلك لتتناول غداءها في مطعم قريب . ولما عاد جاك كانت قد رجعت لتوها بعد قضاء بعض مصالحها فطوقته بذراعها ونظرت في عينيه متسائلة عما أخره كل هذا الوقت فطمأنها أن العملية التي توجه من أجلها الى المحطة تعقدت واحتاجت الى كل هذا الوقت . فخفضت صوتها وقالت له هامسة :

ـ لقد أقلقت بالي . فقد خطر لي خاطر مزعج أحزنني كثيرا . فقد ظننت أن ما افضيت اليك به بالأمس جعلك تنصرف عن حبي وانك قد مضيت عني الى الأبد .

ثم أخذت تنتحب وهي تتمرغ على صدره وتفرس أصابعها بعنف في ذراعيه وتقول بصوت تخنقه العبرات :

ـ آه لو تعلم يا حبيبي كم انا بحاجة الى العطف والحنان ! أحبني بكل قلبك . لأن حبك وحده هو الذي يمكن أن يجعلني انسى . والآن وقد أخبرتك بكل همومي لا ينبغي لك أن تتركني . عدني بهذا !

فتأثر جاك بكلامها تأثرا عظيما وجعل يطمئنها ويهدئها . ثم تذكر مصيبته فانفجر باكيا وقال لها :

ـ أنت أيضا ينبغي أن تحبيني بأقصى ما تستطيعين . فان حاجتي الى الحب مثل حاجتك .

ـ خبرني بهمومك يا حبيبي لتستريح وأحملها عنك .

ـ انها ليست هموم . انها فقط أحزان تجعلني أحس بالتعاسة . والآن حان ان نفكر في السفر . فلابد من العودة الى الهافر .

ـ آه لو كنت طليقة حرة ! آه لو لم يكن زوجي موجودا !

فتراجع الى الوراء وقال :

ـ ولكننا لا نستطيع ان نقتله !

وعجب من نفسه ، لأنه اذا كان لابد له من القتل فلماذا لا يقتل هذا الرجل الذي يعترض طريق سعادتهما ؟

ولكنها لم تترك له مجالا للتفكير بل احتضنته وقبلته قائلة :

ـ أحببني . وسأحبك انا حبا ينمو مع الزمن وسنكون اسعد البشر .

قلب امرأة

مضت الأيام والعلاقات بين العاشقين تزداد توثقا . الى أن كان يوم من أيام شهر مارس ، فحضر جاك الى مسكن سيفرين وقال لها :

ــ ان صديقا من زملاء الدراسة اعتزم السفر الى نيويورك لتوسيع مصنع لصناعة الأزرار يملكه هناك . وهو فى حاجة الى شريك يمتاز بالخبرة الميكانيكية ويدفع نصيبا من راس المال لا يزيد على ثلاثين ألف فرنك ، ولا شك ان استثمار هذا المبلغ سيدر أرباحا طائلة قد تبلغ الملايين .

وكان جاك يتكلم عن هذا الاقتراح بطريقة الحديث العابر ، ثم اكد لها أنه رفضه بالرغم مما فيه من مغريات وفرص نادرة لتجديد الحياة واقتناء الثروة !

وشردت سيفرين ببصرها وهى تصغى لتلك القصة . ورات فيها مجاوبة لأحلامها الخاصة فى هجر بيت الزوجية وابتداء حياة جديدة ليس فيها شىء من كآبة الحاضر ومنغصاته . ثم قالت :

ــ كنا نستطيع السفر غدا !

فرفع جاك راسه فى دهشة وسألها : « ماذا تعنين ؟ » .

فقالت غير ذاكرة روبو باسمه بل مشيرة اليه بضمير الغائب : « لو أنه مات ! » .

ثم مالت برأسها الى جانبهـــا فى استسلام . ففطن جاك الى ما تعنيه ، ولوح بذراعيه فى اشارة معناها ان هذا للأسف غير الواقع فاستطردت هى قائلة :

ــ نعم : كنا نستطيع الابحار الى حيث نسعد ! . اننى استطيع الحصول على ثلاثين ألف فرنك واكثر منها من بيع البيت . فنتمكن

من دفع رأس المال المطلوب ويتبقى معنا ما ننفقه انتظارا للربح . نتعمل أنت فى المصنع مع شريكك . بينما اهيىء انا العش الذى نتساقى فيه كئوس الغرام . ويا لها من حياة جديدة رائعة !

فأخذ جاك بجمال هذه الصورة ، وتشابكت يداهمـــا فى حركة تلقائية وأخذا يتبادلان بذلك التشابك ضغطا صامتا كأنه عناق مختصر .. الى أن قالت له :

ــ ينبغى أن تقابل صديقك قبل أن يرحل وتطلب منه الا يتخذ شريكا آخر قبل ان يتسع لك الوقت فى اللحاق به . ان الله وحده يعلم الغيب . وما بين عشية وضحاها قد يتدخل القدر فى حياتنا ، فيدهمه قطار واسترد حريتي أو غير ذلك !

فأجابها بابتسامة مغتصبة : « أتراك تريدين منى أن أقتله ؟ » .

فقالت بفتور : « كلا ! كلا ! . » . ولكن عينيها الدعجاوين كانتا تقولان : « نعم ! .. وما دام روبو قاتلا فلماذا لا يموت مقتولا ؟ .. وهل هناك أبسط من التخلص منه بالقتل ثم ننطلق على سجيتنا ؟ » .

لقد اصبح هذا الموضوع فكرة ثابتة في ذهنها حتى اكتسب وجاهة الحجة المنطقية فأصبحت تراه ضروريا محتوما بل واجبا . ولكنها لم تكن تجرؤ على التصريح بذلك !

وكأنما فهم جاك ما يدور برأسها فاتكأ على جانب السرير وقال محاولا الابتسام وقد وقعت عيناه على المدية فوق المائدة الصغيرة :

ــ ان أردت ان أقتله ، فيجب ان تعطينى هذه المدية !

وقالت له وهى تعانقه : « خذها يا حبيبى ! » . فوضع المدية في جيبه ثم قبلها وقال لها :

ــ الى اللقاء ! سأقابل صديقى واطلب اليه أن يمهلني . واذا لم تمطر السماء مساء السبت فقابليني خلف منزل سوفانيا . ولا تقلقى ، فلن نقتل احدا . انما كان هذا مزاحا ! .

وخرج جاك متوجها الى الميناء ينشد الفندق الذى ينزل به صديقه. وهناك حدثه عن احتمال ايلولة مبلغ من المال اليه بالوراثة ، وطلب

ان يمهله اسبوعين للتفكير فى تلك الشركة . وفى طريق عودته مخترقا الحارات الضيقة انتابته الدهشة مما أقدم عليه . فهل هو حقا يريد ان يقتل روبو ؟ ام انه أقدم على ذلك من قبيل الاحتياط والأمل فى تدخل القدر ؟!

ومرة أخرى شعر بضغط يد سيفيرين الساخنة ، وبنظرة عينيها التى تقول : نعم ، حتى ان قالت شفتاها : لا !

ولم يستطع النوم فى تلك الليلة ! . بل جعل ذهنه يدور حول فكرة القتل وما يترتب عليها من نتائج بعيدة المدى فى حياته . واخذ يوازن بين مافيها من المحاسن والمساوىء . وبعد اخذ ورد طويلين رجحت كفة المحاسن ، فهذا الرجل روبو هو العقبة الوحيدة فى طريق سعادته . ومتى أزيح من طريقه استطاع ان يتزوج معبودته سيفيرين ويستحوذ عليها خالصة لنفسه الى الأبد !

ثم هناك المال الذى يظفر به وينميه فى الصناعة حتى يصبح ثروة طائلة ، فيترك مهنته الحالية المضنية ويجدد لنفسه حياة ارغد فى الدنيا الجديدة التى يقال ان الذهب فيها مبذول للناس فى الشوارع لا يكلفون انفسهم الا الانحناء لجمعه !

وفى تزاويق ذلك الحلم ، راى أعز أمانيه واقواها سلطانا على نفسه وقد تحققت .. من ثراء وحب وراحة . ولن يكلفه ذلك الا ان يحرك اصبعه فينحى عن طريقة ذلك الرجل . وهو ليس بالشخص الذى يستحق ان يضغط على نفسه لانقاذ حياته . فلماذا يبقى عليه وهو ليس الا غبيا فظا جلفا اصبح عبدا للقمار . فلا خير فى حياته لانسان حتى ولا لنفسه . والخير كل الخير فى موته . فلموته على الاقل فائدة ليست لحياته . والتردد فى هذا المقام جبن وبلاهة !

وتقلب جاك فنام على بطنه ، وعاودته فكرة دائه الخفى الذى يدفع به الى الرغبة فى القتل . فلماذا لا يتخلص من هذه الرغبة باشباعها مرة واحدة ، وتكون الضحية هى روبو . وبهذا يصيب بحجر واحد عصفورين !

واخذ جسده يتصبب عرقا وهو يتصور نفسه وقد أغمد السكين فى رقبة روبو ، كما اغمدها روبو فى رقبة القاضى . وشعر بالراحة والسلام يعودان اليه مع تخيل دم الضحية وشفاء نفسه من دائها ، وسعادته مع المراة التى احبها ، وبالثروة العريضة التى ستكون لهما !

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا حين وصل جاك الى هذا القرار ، وخيل اليه انه سيحصل بذلك على هدوء الأعصاب فيستغرق فى النوم . وأوشك أن يغفى حين اعترضت حلقه غصة فجلس فى سريره مذعورا ، واخذ يناجى نفسه محاولا تبرير ذلك العمل . ولكنه لم يجد هناك ما يبرره سوى قانون الغاب ! ان زوجة هذا الرجل تحبه وتتوق الى التحرر والتخلص لتكون له بكليتها وبما تملك ، فكل ما يريده من قتله هو تنحيته عن طريقه ! . أليس ذلك ما تفعله الذئاب اذا التقى منها ذكران وانثى ؟ . أليست هذه طريقة الانسان البدائى حين كان يعيش فى الكهوف ، لا حق للرجال والنساء الا بطريقة السبى والاغتصاب ؟ . وما دام هذا حكم الفطرة ، فلماذا يتخاذل ؟ كلا ! . انه سيختار من الغد مكان الجريمة وزمانها ، ويقوم بالتجربة لاحكام تفاصيل الخطة ولا شك أن أحسن المناسبات للانقضاض عليه هى جولة التفتيش الليلية التى يقوم بها ، حتى يسبق الى ظن الناس والسلطات انه ذهب ضحية لصوص البضائع !

وهكذا بدلا من ان يستسلم للنعاس راح يضع التفاصيل . الى أن طلع النهار فنام نوما خفيفا واستأنف فى الحلم ما كان يفكر فيه فى الأرق !

وعاودته المخاوف وقال لنفسه : ان قتل انسان تحت ضغط الدافع الجنونى بغير روية شىء ، وتدبير ذلك القتل بروية من أجل المنفعة شىء آخر . وصحا من نومه مشمئزا من نفسه ، فبعث الى سيفيرين يطلب منها الا تخرج لمقابلته مساء السبت .

ولكنه فى يوم الاثنين وجد نفسه مسوقا الى رؤيتها ! ولم تفاتحه

فى مسالة القتل اطلاقا ، غير أن عينيها المعبرتين كانتا تفيضـــــان بالتساؤل والتوسل والعتاب وكأنها تلومه لتردده دقيقة واحدة فى الاقدام على العمل الذى يشترى به سعادتهما فلما قام لينصرف قبل فمها قبلة ملتهبة كأنه يؤكد لها أنه لن يتردد بعد الآن . وكان هذا شعوره فعلا الى أن هبط السلالم فعاودته هواجسه !

ولما التقيا فى اليوم التالى ، كان زائغ العينين شأن الجبان الذى لا يستطيع أن يستقر على عمل يعلم أنه لا مناص له من الاقدام عليه . فلم تقل له سيفيرين شيئا بل طوقت عنقه بذراعيها وانفجرت باكية ، ثم سألته :

ـ هل سنلتقى مساء الخميس ؟

ـ نعم وسأكون فى انتظارك .

وكانت ليلة الخميس ليلة ظلماء توارت فيها النجوم وخيم عليها ضباب ثقيل تدفعه رياح البحر ، وكان جاك كعادته السابق الى الموعد، فجلس ينتظر سيفيرين خلف منزل سوفانيا . وقد أقبلت بخطوات غير مسموعة ، ولم يرها فى الظلام الحالك ، فلما فوجىء بيدها تلمسه لم يعرف من هى ، وارتعدت أطرافه ، ولكنها سرعان ما ألقت بنفسها بين ذراعيه وسألته :

ـ هل أفزعتك الى هذا الحد ؟

ـ كلا . . فقد كنت انتظرك !

ثم سارا متخاصرين بين أفنية المحطة المظلمة . ولبثا فترة طويلة لا يقولان شيئا ، وقد وضعت رأسها على كتفه . وبين الحين والحين ترفع وجهها لتقبل ذقنه ، فيميل ويقبل جبهتها . الى أن دقت ساعة الكنيسة معلنة مضى ساعة بعدانتصاف الليل !

ومع انهما لم يتحدثا ، كان ضغط الذراعين حول الخصرين ينقـــل أفكارهما خيرا من كل كلام . ولذلك استمرت المحــــاورة حول موضوعهما المعهود . وكلما احتكت به مفازلة ، شعرت بالمدية فى جيب بنطلونه . فهل معنى هذا انه عقد العزم نهائيا ؟ . وكأنما أحبت أن تستوثق فقالت له :

ـ لقد حضر الى المسكن قبل نزولى بلحظات قليلة فاخذ مسدسه . ومعنى هذا انه سيقوم بجولة ليلية !

ثم ساد الصمت مقدار عشرين خطوة ، وعندئذ قال لها :

ـ ان بعض اللصوص اقترفوا سرقة ليلة أمس فى هذه المخازن ... ولا شك انه سيمر الليلة من هذا الطريق !

فارتجفت سيفيرين وهما سائران معا ببطء فى صمت تام . ثم شبت على أصابع قدميها مرتين لتمنحه قبلة كى تشدد عزمه وتطمئن نفسها . وارادت أن تتأكد من وجود المدية فى جيب بنطلونه وانها ليست مفتاحا مثلا ، فطوقته بذراع واحدة ، وباليد الأخرى تحسست رجل بنطلونه صعودا وهبوطا ، وشفتاها ملتصقتان بشفتيه ! . وفهم جاك غرضها من هذه الحركة فهصر عودها اللدن بين ذراعيه وهمس فى أذنها :

ـ انه سيأتى حتما . وعندئذ نتحرر الى الأبد !

والآن وقد تقرر القتل ، جعلا يسيران لا بارادتهما بل مدفوعين بقوة خارجة عن ارادتهما ، وقد توترت أعصابهما . وأرهفت حواسهما لأقل صوت ولكل شبح ! . وبعد بضع دقائق ضغطت سيفيرين ذراع حبيبها هامسة بحذر وتشجيع : « هذا هو ! » .

ـ أين ؟ . انى لا أرى شيئا !

ـ بل هذا ظله على الحائط الابيض !

ـ حقا ؟ . وهل هو وحده ؟

ـ أجل . وحده تماما !

وفى هذه اللحظة الحاسمة تعلقت بعنقه ومنحته قبلة طويلة !

لو أن لأعصاب يدها القوة الكافية لأقدمت على هذه الجريمة عشرين مرة كى تخلص لحبيبها . ولكن الطعنة تلزم لها قبضة رجل . فكل ما تستطيع أن تصنعه له أن تعطيه جانبا من جسارتها فى قبلة تحمل له الوعد الأكيد بامتلاك جسدها امتلاكا كاملا . وشق حجاب الليل صفير قاطرة . فلما رفعت سيفيرين شفتيها من فوق شفتى جاك

احست بخواء داخلى ، وكأنها قد أفرغت كل ما كان لها من حول وقوة . وكان جاك قد فتح المدية ، ثم اذا به يزمجر هامسا :

– لا فائدة . فقد ذهب من الجهة الأخرى !

وكان هذا حقا ! . غير أن سيفيرين دفعته قائلة : « الحق به . لا تتركه يفلت ! » .

وانطلق وهى فى أعقابه . الى أن أدركاه على بعد اربعين خطوة فتواريا بجدار لكى لا يشعر بهما . واذا به ينحرف الى جهة الضوء ، فقال لها :

– لقد افلت منا الآن .

فقرصته فى ذراعه وقالت له هامسة : « كلا ! انظر ! . انظر . ها هو ذا قد عاد ! » .

وكان هذا حقا ايضا ! .. فوقفا جامدين فى مكانهما فى ظل كومة فحم ضخمة ، وكتما أنفاسهما بينما روبو يتقدم نحوهما بخطا ثابتة حتى بات على بعد أقل من خمسين خطوة ، ثم ثلاثين ، ثم عشر خطوات !

لم يكن عليه الا ان يرفع المدية ويغرسها فى عنقه ، وبدا له ان الثوانى لا نهاية لها . فقد كان تيار الأفكار الذى اقتحم خاطره فى تلك اللحظة صاخبا . فمرت به دوافع هذه الجريمة ، ومن ورائها نتائجها . حتى اذا صار الرجل على بعد خطوتين اضطرب كل شىء واختلط !

كلا ! انه لن يستطيع ان يقتل هذا الرجل الاعزل . فالحجة وحدها لا تكفى لاقناعه بالقتل بل لابد من الدافع الغريزى الاعمى !

وانطلق روبو سليما . وقد كادت ذراعه تحتك بعدويه المتواريين بكومة الفحم ! . بينما شلت ذراع جاك الى جواره . ولم يفق من ذهوله الا بعد انابتعد غريمه !

وخنق جاك عبرة يمتزج فيها الغضب بالخجل وقال :

– كلا ! . لا أستطيع ان افعلها !

واراد ان يأخذ سيفيرين بين ذراعيه ويميل فوقها ليجد لديهــا الغفران والعزاء . غير أنها ابتعدت عنه منصرفة ، دون أن توجه اليه

كلمة واحدة . فكان اختفاؤها صدمة له اذهلته ، فلم يتبعها ! حتى اذا وجد نفسه وحيدا فى فناء المحطة تملكه اليأس ، فاسرع الى فراشه ينشد بين وسائده السلوى والنسيان !

***

ولقى جاك بعد ذلك عناء فى استرضاء سيفيرين . وفى ذات ليلة وجدها تنتحب حين دخل عليها ، فلما رأته طوقت عنقه بذراعيهـا واجهشت ببكاء أقوى واشد فحاول ان يهدئها بالعناق والقبلات . غير أنه تبين هذه المرة ان احضانه التى كان لها فيها فعل السحر قد فقدت تأثيرها ، بل أصبح لها تأثير عكسى . فقد زادت فى لوعتها وحرارة بكائها . فادرك أنها لا تبكى على شيء يخصها ، بل تبكى ذلك الضعف الأنثوى الذى منعها من تولى « العملية » بيديها . قربت خدها وتطلع فى عينيها الدامعتين وقال لها :

ـ سامحينى ! . تذرعى بالصبر برهة أخرى قصيرة . واقسم لك اننى سأتم الأمر بأسرع ما تواتينى القدرة !

وعلى الفور منحته شفتيها ! . كأنما لتوثق بتلك القبلات عهده ، وكأنه يقسم بشفتيها وكأس غرامها المترعة أن يبر بوعده !

العاشقة الموتورة

ماتت فازى زوجة مينار مساء يوم الخميس التالى ، بعد نوبة من من التشنجات . وحاول زوجهـــا عبثا أن يعلق عينيها فبقيتا مفتوحتين . وتخشب عنقها بحيث بدت كأنها تنظر الى الحجرة ، وتقلصت شفتاها عن أسنانها فكانها تبتسم ابتسامة خبيثة ! . وكانت عند راسها شمعة واحدة مشتعلة جعلت تضطرب شعلتهـــا كلما مر بالخارج قطار !

ورأى مينار ان يتخلص بعض الوقت من ابنتها فلور فارسلها الى دوانفيل لـكى تبلغ المعارف والأقارب بموت أمها . وهكذا وجد امامه ساعتين كاملتين يفحص فيهما الحجرة ويحاول أن يصل الى الفرنكات الألف !

واخرج قدرا من تحت السرير كانت تختزن فيهـــا الماء حتى لا تشرب من يده خشية أن يدس لها السم ولكنه غافلها ووضع السم فى هذه القدر . ثم حمل القدر الى الخارج فأفرغها فى التراب ، وعاد فرتب الحجرة . وغاظه أن تنتصر عليه بعد موتها فلا يعـرف مخبأ النقود . مع أنها لم تأخذها معها ! . ونظر نحوها فخيل اليه انها تتابعه بنظراتها ، فعاد يحاول أن يغمض عينيها . ولكنه لم يفلح فى ذلك ، فتركها وأخذ المفاتيح من تحت وســـــادتها وفتش حزانه البياضات بغضب جنونى ، فلم يعثر على شىء ! . فركع على ركبتيه وجعل يطرق أرض الحجرة عسى أن يسمع رنينا اجوف . ثم حطر له فجأة أنها ربما اخفت النقود فى ثيابها ، فقام واخذ يفتش كل موضع فى ملابسها وداخل الحشية التى ترقد عليها . لكنه لم يجد شيئا ! . وفيما هو كذلك دخلت عليه فلور عائدة من دوانفيل وقالت له :

— لقد قرر القس أن تكون الجنازة بعد غد (السبت) فى الساعة الحادية عشره !

ثم لاحظت ما كان يفعله فى غيابها فهزت كتفيها وقالت له : « لن تجد شيئا ! » .

ـ اذن قد اعطتك اياها .. أو انت تعلمين اين وضعتها ؟

ـ أعطتنى اياها ؟ . تكتة طيبة ! . أعطتها للأرض ! . احفر الأرض فى كل موضع !

وكان فى نية فلور أن تسهر بجانب الجثة طول الليل ، لأنها كانت فى حال هياج نفسى شديد من تأثير النجوم الساطعة فى تلك الليلة الرائعة وهى عائدة من دوانفيل . وانها لتعجب لنفسها لماذا لا تبكى لموت امها ؟ . فقد كانت تحبها برغم كل شيء ، اما البوليس فلم تفكر فى استدعائه . فما الفائدة من هذا كله بعد آن وقعت الواقعة ؟ . وما جدوى اى شيء وهى تشعر بأن كل ما فى العالم مضطرب مختلط !

وبعد ان سلخت فى شرودها وقتا بجانب جثة امها ، مر القطار الذاهب الى الهافر فى الساعة الواحدة والثلث ، فقالت لنفسها :

ـ باق من الزمن سبع ساعات . فغدا الجمعة فى الثامنة والثلث صباحا سوف يمران من هنا ذاهبين كعادتهما كل أسبوع الى باريس !

كانت فى الأسابيع الأخيرة تعيش فى جحيم من الغيرة المضنية ، اذ تتمثل الصورة التى يقضيان عليها يوم غرامهما فى باريس ! وكم من مرة خيل اليها أن عجلات قطارهما تمر فوق قلبها ! . وفى الأسبوع الماضى طرات على ذهنها فكرة لم تلبث ان استولت على كل تفكيرها : ان تقتلهما ، لكيلا يتمتعان بعد ذلك بالمتاع الذى حرمت منه .

ولم تستطع مقاومة غريزتها الوحشية ، فهى لا تطيق الالم ولا تستريح حتى تنتقم ! . أجل ستقتلهما فى المرة القادمة ! . ولكى تحقق ذلك الغرض لابد لها من أن تقلب القطار !

وهداها تفكيرها الى أن خير وسيلة لتحقيق غرضها هى رفع جزء من القضيب من موضعه . وعندئذ تتهشم القاطرة وجاك بداخلها . ثم تتهشم العربة التالية حتما ومن ضمن ركابها سيفيرين .. اما مصير سائر من فى القطار ممن لا تعرفهم ولا ذنب لهم عندها ، فذلك أمر لم يخطر لها ببال !

ولم يحل دون تحقيق هذه الكارثة فى يوم الجمعة الماضي سوى انها لم تعرف كيف تفك جزءا من القضيب . اما فى هذه الليلة فقد خطر لها وهى تجتاز النفق آتية من دوانفيل خاطر جديد . وهو أن تضع فوق القضبان قطعا كبيرة من الأحجار !

كل هذا كانت تفكر فيه ، ومينار يواصل البحث والتنقيب عن الكنز المفقود ، وقد امسك فأسا ، وأخذ يضرب بها الجدران واحدا بعد آخر ، ويحفر أرض الحجرة تارة أخرى الى أن طلع الفجر ! . ففتحت النافذة لتبدد رائحة الشمع ، مع أن الشمس لم تكن قد بزغت بعد !

ثم لم تلبث الشمس ان ارسلت أشعتها مبشرة بميلاد يوم بديع دافىء . فقبلت والدتها قبلة أخيرة ، وخرجت لتقوم بنوبتها فى حراسة البوابة . وجلست فى الخلاء بقربها تستمتع بدفء الشمس وتستنشق أنسام الصباح المنعشة !

وفى الساعة الثامنة الا خمس دقائق نفخ مينار فى بوقه مؤذنا بمرور القطار القادم من الهافر . فقامت وأغلقت البوابة ، ووقفت ورايتها فى يدها الى أن مر ذلك القطار المحلى الصغير واختفى فى النفق !

ولكنها لم تعد الى مقعدها ، بل ظلت واقفة كالتمثال . وكل ما فى ذهنها أن جاك وسيفيرين باتا قريبين من هنا فى رحلتهما الغرامية الأسبوعية ! . فشدد ذلك من عزمها !

وبعد خمس دقائق ، سمعت صوتا معروفا لها يناديها باسمها . وكان صاحب هذا الصوت هو كابوش . وقال لها :

ـ هل ذهبت شمس الربيع بعقلك ؟ . اسرعى وافتحى لى البوابة كى امر قبل مرور القطار السريع !

فغاص قلبها فى قدميها ! .. لقد أرسل الله اليها الوسيلة الفعالة فى صورة هذه المركبة المحملة بالأحجار الضخمة . وبيد مرتجفة أخذت ترفع البوابة وعيناها مسمرتان على تلك الكتل الصخرية التى تعبا بجرها خيول كابوش الخمسة . وأخذت الخيول الخمسة تجر بعناء شديد العربة الثقيلة لتجتاز البوابة ، بينما قالت هى لصاحبها :

ـ لقد ماتت أمى الليلة .

فوضع كابوش السوط من يده وشد على يدها معزيا قائلا لها :

ـ يا لك من فتاة مسكينة ! . ان وفاتها كانت متوقعة . ولكن هذا طبعا لا يخفف وقع المصيبة . سـأذهب فألقى عليها نظرة الوداع !

ثم سار بخطا بطيئة نحو الكوخ . وهى تطمئنه قائلة :

ـ لا تخف فلن تتحرك الجياد .. أما القطار فلا يزال بعيدا .

وكانت هذه العبارة الأخيرة كذبا صريحا . فلن يلبث القطار سوى أربع دقائق يكون بعدها أمام البوابة . وما اختفى كابوش داخل الدار وركع يصلى متذكرا بوفاة الأم وفاة ابنتها الصغرى حبيبته لويزت .. حتى أخذت فلور تغرى الجياد الى ان وقفت بالعربة الثقيلة فوق القضبان . ثم أمسكت بعنان الجواد الأول وتشبثت به بكل قوتها حتى لا يتحرك من مكانه منزعجا من صوت القطار فلما أصبح القطار على بعد مئة خطوة ، بذلت جهد المستميت ، وهو جهد يساوى قوة حصان على الأقل فى الاتجاه المضاد لاتجاه الجياد . ثم تلت ذلك ثوان من رعب لا يمكن أن يوصف . فان الصخور الثلاثة الضخمة كانت تسد الأفق أمام القاطرة وهى مندفعة بأقصى سرعتها !

ثم وقعت الواقعة فاصطدم القطار السريع بالعربة الواقعة فى طريقه بجيادها الخمسة ، وبما تحمله من أحجار ! .

***

ان للقدر حكمته العليا ! لقد بلغ عدد الضحايا فى كارثة القطار السريع عشرات من الرجال والنساء والأطفال ، تناثرت أشلاؤهم هنا وهناك . أما سيفيرين فلم تكن فى العربة التالية للقاطرة كعادتها كل مرة ، بل كانت فى العربة الأخيرة منه ، لأنها ركبته فى آخر لحظة . ولهذا لم تصب بسوء ، وسرعان ما قفزت من مكانها عقب الحادثة وهى تصرخ فى جزع : « جاك .. حبيبى جاك ! » .

أما فلور فكانت تنتظر وقوع هذه الكارثة ، وقد اخذت تصيح هى أيضا كالمجنونة ، وهى تفتش بين الأشلاء باحثة عن ذلك الذى من أجل القضاء عليه اقترفت هذه الفعلة الشنعاء !

وهكذا تعاونت الغريمتان فى اللهفة على الرجل الذى تتنازعان قلبه !

ويسخر القدر مرة أخرى ، فاذا جاك ملقى على الأرض حيا ، ولم تصبه الا شظية فى ذراعه وصدره !

وكان كابوش قد حضر مسرعا ، فحمله بمعاونتهما الى الـكوخ وربط ذراعه ثم أصرت سيفيرين على أن تنقله الى بيت ضيعة موفراس القريب حيث العناية أتم . فقام كابوش بنقله الى هناك ! وابت فلور الا ان تعاونه على اداء هذه المهمة !

وكانت حجرة النوم الكبرى فى بيت ضيعة موفراس ذات ستائر حمراء . وتقع فى الطابق الثانى مطلة على الخط الحديدى لا يفصلها عنه الا بضع خطوات ومن السرير الضـخم يستطيع الراقد أن يبصر القطارات ذاهبة وآتية . وفى هذه الحجرة ، وفى ذلك السرير الذى كان ينام فيه القاضى جرانموران ، أرقدته سيفيرين فى انتظار الطبيب . وقد استبد القلق بقلبها . وكان بين الجرحى السـائق هنرى دوفرنى فمنحته حجرة النوم الصغرى فى الطابق الأرضى !

وارتدت سيفيرين مريلة بيضاء فوق ثوبها ، وشرعت تضطلع بعمل الممرضة ثم ارسلت برقية الى روبو تنبئه بسلامتها ، وانها ستبقى بضعة أيام فى ضيعة موفراس للعناية ببعض الجرحى من معارفها !

ولما حضر الطبيب ، اكد ان جاك لا خطر على حياته ، وانه سيعافى بعد اسبوع على الأكثر ، لأن جروحه كلها عضلية . ولكن يجب الا يتحرك من فراشه فى الأيام الثلاثة الأولى !

وما افاق جاك من غشيته وفتح عينيه ليجد سيفيرين قائمة على راسه ، حتى اشارت اليه باصبعها الا يتحرك . ولكن تنبهه كان تاما فعرف على الفور تلك الحجرة القرمزية التى وصفتها له حينما قصت عليه كيف اعتدى القاضى عليهـا وهى فى سن السادسة عشرة !

وكانت سيفيرين عندما وجدت زوجها يسطو على المـال المسروق من جيب القاضى ويبدده على موائد القمار قد احتجزت لنفسها ساعته الثمينة واهدتها الى جاك . وكانت تعلم أنه قلق خشية ان تكتشف . فقالت تطمئنه :

ــ لا تقلق ! . فقد أخذت السـاعة من جيبك . فربما فتشوا ملابسك . ولهذا وضعتها مع أشيائى الخاصة !

فضغط يدها معربا عن شكره ! . ثم التفت فراى فوق مائدة صغيرة بالقرب من الفراش تلك المدية المعهودة ، التى قتل بهـا القاضى ذات ليلة . ولكن لم تكن هناك حاجة الى اخفائها . لانهـا مدية مثل اى مدية !

وبعد يوم واحد ، بدأ يعتقد انه لن يموت كما لو كان يخشى !

وأسعده أن يثابر على زيارته كابوش ليسليه بحديثة الساذج . والواقع أن هذا الحجار الذى فقد ثروته كلها فى حادث القطار لزم سيفيرين من الصباح الى المساء بمثابة خادم خاص !

وفى ذلك اليوم وهو يوم السبت ، وقد استعد الجميع لتشييع جنازة فازى شيعوا معها جنازة أخرى ، هى جنازة ابنتها فلور التى صدمت أعصابها بشاعة جريمتها العقيمة فشنقت نفسها !

وخشيت سيفيرين كثرة أقاويل الناس لو انها لازمت جاك دون سواه ، فجعلت تقسم الوقت بينه وبين هنرى دوفرنى . ولا سيما بعد أن اطمأنت على حالته . فكان يقضى معظم الوقت مع كابوش .

وفى ذات ليلة ، وكان جاك قد صرح له بالتجول فى الحجرة ، لمح من النافذة فانوسا يتأرجح بالقــرب من كوخ مينار . فظن أن الرجل ما زال يبحث عن الكنز المفقود . ولكن كم كانت دهشته حينما تبين أن الذى يحمل الفانوس هو كابوش . وقد وقف تحت نافذة غرفة سيفيرين كالكلب الأمين ! . ولم يشعر جاك بضيق ، بل شعر بأسى على هذا العملاق المسكين الذى يحب سيفيرين بلا أمل ! . وتذكر تفانيه فى خدمته متلمسا بذلك القرب من سيفيرين فلم يسعه الا أن ابتسم فى مرارة !

وفى اليوم التالى ، لمحه يلتقط من فوق الأرض خلسة دبوس شعر كان قد سقط من سيفيرين ، ثم يخفيه فى ملابسه . وفى الوقت نفسه شعر جاك بأن العافية تثوب اليه ومع العافية قوة الرغبة وعذابها .

وبعد يومين ، وقد انقضى على وقوع الكارثة أسبوع كامل ، أعلن الطبيب ان جاك ودوفرنى فى وسعهما أن يستأنفا العمل . وعلى أثر ذلك سمع جاك ضحكة رنانة من الطابق الأسفل ثم ميز صوت دوفرنى وأختيه وصوت سيفيرين . فتحركت فى صدره عقــارب الغيرة ، ولكنه لم يفاتح سيفيرين فى الأمر ، لأنها تحاشته طيلة ذلك اليوم !

وفى المساء ، ساد الصمت أرجاء البيت . وجعلت سيفيرين تتلكأ فى حجرة جاك . فسألها :

ــ هل ذهب ؟ . هل أخذته شقيقتاه معهما ؟

ــ أجل .

ـ اذن اصبحنا وحدنا اخيرا في البيت ؟

ـ أجل ! خلا لنا البيت تماما .. ولكن يجب ان اعود الى الهافر غدا اذ ليس من المستساغ أن نقيم في هذا المكان الموحش وحدنا بغير مسوغ !

ـ بل قولى انك حزينة لذهابه ! . ولست اقول هذا لانى اشعر بالغيرة . فقد قلت يوما انك تريدين أن أقتلك ان أقدمت على خيانتى مرة . وهأنذا لا ابدو كمن يهم بأن يقتل . ولكنى لاحظت انك كنت تقضين الكثير جدا من وقتك في حجرته ولا تقضين معى دقيقة !

ـ ليس الذى بينى وبينه كالذى بينى وبينك ! ان ما بينى وبينه شيء في الهواء . شيء أتعزى به عن غرامى الحقيقى الذى قضي عليه بالموت ، أو بالسجن المؤبد . فلا أمل لنا فيما أعتقد في الهجرة بحبنا الى أرض جديدة . وقد كتب على الا انتظر شيئا من غرامنا العقيم . فلن يحملنى الغد الا أنواع العذاب التى يحملها لى اليوم !

ـ ولكنه ليس الوحيد فيما يظهر . فهناك ايضا متيم آخر هو كابوش !

ـ وهل لاحظت هذا أيضا ؟ .. انه يحبنى ولست ادرى ماذا جرى لمن حولى من الرجال جميعا . ولكن هذا العملاق لا يفصح عن حبه . وكل ما هناك أنه يسرق كل ما تصل اليه يده من اشيائى الخاصة كالقفازات والمناديل ويحملها الى كوخه في جوف الغابة تذكارا لحب يائس ! . ولكنى لا اتصور نفسى انقـاد يوما لرغبات هذا الحيوان الضارى . فحجمه يفزعنى . ثم انه لا يطلب شيئا . فخجله متناسب مع ضخامته . وتستطيع أن تأتمنه على فلا يمس شعرة من رأسى . كلا ! . لا خوف على منه ولا من دوفرنى .. أتدرى لماذا ؟ . ذلك لاننى أعرف نفسى ، واعرف انك اخذت كيانى كله ملكا لك ! .. اخذتنى كما يأخذ الانســـان عجينة بين اصابعه فيشكلها كما يريد . ولم يحدث لى أن شعرت بالانتماء الى احد كما أنتمى اليك . وسأظل لك الى الأبد حتى ولو كرهت انا أن أكون لك أو مللتنى أنت ونبذتنى ! . ان الآخرين لن يثيروا في نفسى وجسمى سوى التقزز والخوف .

ثم بسطت ذراعيها لتضمه الى صدرها ، وتضع راسها على كتفه وشفتيها على شفتيه . ولكنه أبعدها بيده وقد شعر بعلته الشيطانية

تعاوده ، فبين اذنيه ضرب كطرقات المطارق ، ورنين يؤذن بأن نوبة من اعنف نوباته توشك أن تستولى عليه !

انه في المدة الأخيرة لم يكن يجسر على الخلوة معها في النهار الا اذا احكم اغلاق الستائر ليسود الظلام ، فقد كان يخشى أن يجن جنونه فجأة اذا شاهد مفاتنها أمام عينيه . وهى الآن فى ضوء المصباح تبدو رائعة وقد ظهرت استدارة كتفيها ونحرها الناصع وقد نفر من تحته ثدياها لا يحجبهما الا ثوب نوم شفاف !

وحسبته غاضبا عندما ابعدها عنه فقالت له :

ـ لست ابالى بانسداد الطريق امام غرامنا ، فاننى اريدك فى كل لحظة ولو لم يحمل حبك لى سوى الألم والخيبة . فلا مناص لى من الاستمرار فى الطريق الذى كتبه على القدر ، وهو ان اتعذب بحبك واستمتع بالعذاب على يديك . وسنعود الى الهافر . ومهما تتكشف عنه الأيام فسيسعدنى ان تكون معى ساعة عابرة بين الحين والحين ! .

والآن وقد عوفيت ، وخلا لنا البيت فساقضى هذه الليلة معك . فهى ليلتنا الأخيرة في هذا المكان المنقطع عن الدنيا لا يعكر خلوتنا فيه شيء . اسمع . لا صوت ، لا حس اننا فى هذه الدار الموحشة يستطيع كل واحد منا أن يموت بين ذراعى صاحبه دون أن يدرى أحد !

واهاجته مداعباتها حتى لم يعد يطيق منع رغبته العاتية فى القتل ! ولكن ليس فى يده سلاح سوى أصابعه . فاطبقها على رقبتها . ولكن فى تلك اللحظة كانت قد اطفأت المصباح بنفخة من فمها . فسرعان ما تلاشت رغبته فى القتل بتلاشى النور !

ولم تعرف ليلة من ليالى غرامهما السابقة عنفا وحرارة كعنف هذه الليلة وحرارتها . وكأنهمـا كانا يستنزفان من نفسيهما آخر قطرة من عصارة الحياة !

وقبل ان يسلما أجفانهما الى النعاس ، همست فى اذنه :

ـ آه لو كنت وجدت القدرة على قتله ايها الحبيب ! ما اعظم سعادتنا او ان ذلك تحقق ! . فكر يا حبيبى فى اننا سنستطيع لو تذرعنا بالشجاعة والحزم أن نجعل ليالى عمرنا كله مثل هذه الليلة ، ثم نبيع هذا البيت ونرحل لنلحق بصاحبك فى امريكا . وصدقنى

انني لا اغمض عيني ليلة الا وأنا أحلم بحياتنا السعيدة هناك . لو اننا استطعنا .. ولكنك لا تستطيع !

— انى لم أستطع ، ولكنني الآن اعتقد انني أستطيع . وهذا وعد !

— لا تورط نفسك في الوعود ، فان الوعود حين تخيب تسبب غصصا نحن في غنى عنها .

— بل انى أرى المسألة أصبحت ضرورة لا مناص منها .

— ما دام الأمر كذلك ، فاني أستطيع أن أدلك على طريقة مضمونة .. في وسعي أن أستدعيه الى هنا . ثم تكمن له انت . ومتى وصل فخلو المكان ووحشة المنطقة ستجعل العملية غاية في السهولة !

— هذه فكرة بديعة حقا !

— ولكن يجب أن تتخذ كل حيطة . فأى شيء خير من القبض عليك . ويجب أن نجعل المسألة تبدو كأنها انتحار ، ويساعد على هذا ان الجميع قد لاحظوا عليه في المدة الأخيرة شذوذا وضيق صدر !

— هذا كلام معقول جدا !

— واذا استطعنا ان نطعنه في رقبته ، ففي وسعنا ان نزيل آثار الدم ، ثم نحمل جثته تحت جنح الظلام فنضعها على قضبان السكة الحديدية ليتولى أول قطار تقطيعه اربا وتضيع آثار الطعنة . ويقال انه انتحر !

— هذا أحكم تدبير !

— ولكن هناك نقطة ، اذ يجب الا تكون انت هنا وقت انتحاره .. أعنى انه يجب أن ترحل غدا بشكل ظاهر بحيث يراك كابوش وميناز وانت تركب القطار . فتركبه مثلا من محطة بارنتان وتلوح من النافذة وانت مار من هنا ، ثم تنزل في محطة روان وتأتى الى هنا تحت ستار الليل من الدروب الخلفية سائرا على قدميك . وأستطيع أن أدخلك من الباب الخلفي للبيت . والمسافة كلها لا تزيد على ثمانية أميال . ثم تختبىء في انتظار قدومه !

— يا لك من ماهرة حسنة التدبير ! . اني موافق من كل قلبي . وتستطيعين الاعتماد على في التنفيذ !

— ولكن بماذا أتعلل لاحضاره الى هنا . انه لن يستطيع الحضور

الا بعد انتهاء نوبته فى العمل ، أى بالقطار الذى يقوم من الهافر فى الثامنة مساء ليصل الى هنا فى العاشرة ! . ولكن لا . لقد تذكرت الآن أن مينار أخبرنى بوجود راغب فى شراء البيت يريد أن يأتى لمشاهدته بعد غد . وعلى هذا سأبرق الى روبو صباح غد لأخبره بأن حضوره فى الليلة ذاتها أمر ضرورى . وسترحل أنت بعد الظهر ثم تعود فى الساعة التاسعة مثلا قبل وصوله بزمن كاف . ومن حسن الحظ أن هذه الليالى ليست مقمرة ، فلن يشى بعودتك شىء ! . وستمضى الأمور على ما يرام !

واخذتها نشوة السرور بهذا التدبير الدقيق فتعانقا . وكان الوقت قد تأخر كثيرا عندما غرقا في سبات عميق . وظل جاك نائما حتى العاشرة صباحا ، ففتح عينيه ليجد اشعة الشمس تتسلل من فرجات الستائر . ووجد مكان سيفيرين خاليا . فقد قامت لترتدى ثيابها فى حجرتها . وقليلا قليلا عادت الى ذهنه تفاصيل الخطة التى اتفقا عليها . وتذكر ان الشمس حين تشرق فى المرة التالية ، يكون قد غدا قاتلا !

القبلة القاتلة

سارت الأمور في ذلك اليوم على الخطة الموضوعة ، فقبل الظهر بقليل ، عهدت سيفيرين الى مينار فى ارسال برقية باســـمها الى زوجها من محطة دوانفيل . وفى الساعة الثالثة أخذ جاك يسعد بمعاونة كابوش للسفر . وفرح العمـــلاق بسفر عشيق محبوبته فصحبه بنفسه الى محطة بارنتان ولوح له مودعا حين تحرك به قطار الرابعة والربع !

ووصل القطار الي محطة روان فى الخامسة الا ربعا ، فنزل جاك واستأجر حجرة فى فندق يعرف صاحبته العجوز منذ مدة طويلة ، وقال لها انه يريد زيارة بعض الأصدقاء فى اليوم التالى قبل سفره الى باريس !

وفى السادسة مساء ذكر لصاحبه بالفندق انه مجهد ولا يريد العشاء ، ثم اغلق على نفسه باب حجرته الواقعة فى الطـــابق الأرضى . وبعد عشر دقائق كان قد قفز من النافذة الى زقاق مهجور . ثم توجه مسرعا الى ضيعة موفراس !

وفي الساعة التاسعة والربع كان أمام البيت . وكان الليل حالكا ، ولا ينبعث بصيص واحد من واجهته . وحسب الاتفـــاق قذف النافذة بحصاة ثلاث مرات ، ثم دار حول البيت ليدخله من الباب الخلفى . وهناك وجد سيفيرين فى انتظاره ، واغلقت الباب وراءه ، ثم صعد السلم معا . وتبين فى ضوء مصباح الطابق الثانى أنهـــا كانت مرتدية ملابس النوم الشفافة ، فأدهشه ذلك ولكنها ضحكت وقالت :

— لقد خطر ببالى ان هذا انسب شكل ابدو به لزوجي . وحينما أفتح له الباب وأنا هكذا لا تساوره الشكوك . ولا سيما انني قلت لمينار انني متوعكة . وهذا ضرورى للابهام بأننى لم أبرح غرفتى طول الليل .

— ولكن يجب ان ترتدى ثيابك بسرعه ولا تبقى عارية هكذا ! .

— ولماذا يا حبيبى ؛ لا تقلق . فاني لا اشعر ببرد على الاطلاق !

ثم القت ذراعيها العاريتين حول عنقه ، وقد تهدل قميص النوم فوق احد كتفيها فكشف عن صدرها . فتراجع مذعورا ، لأن الجنى الذى يعيش فى أعماقه أخذ يزمجر !

وقالت له : « لا تغضب ! . سأدخل فى الفراش ليطمئن قلبك على صحتى ! » .

وهدأ قليلا حينما جذبت الأغطية فوارت عنقها . ثم راحت تراجع معه تفاصيل الخطة . واقترحت عليه لكى لا يلوثهما الدم أن تخلع قميص النوم أيضا ، ويخلع هو كل ملابسه ، ليتما مهمة القتل عاريين تماما ، ثم يغسلان الدم بسهولة !

فنظر اليها بفزع ! . لأن تخيله منظر جسميهما عاريين الهب وحشيته ، فاعترض بشدة قائلا : كلا سنبدو كالمتوحشين . ولماذا لا نأكل قلبه وكبده أيضا بعد أن نقتله ؟

ـ انما أردت أن أساعدك . فانى سوف لا أقوم بدور ايجابى ، وكل مهمتى ألا تشعر بأنك وحدك . وحتى المدية قد أعددتها لك !

واهتز البيت لمرور قطار سريع . فقالت له :

ـ هذا هو القطار الذى نزل منه فى محطة بارنتان . وسيكون هو هنا بعد نصف ساعة على الأكثر !

وساد الصمت العميق بينهما ، وقد تمثلاه يجد السير فى ظلام الليل . وأخذ جاك يتمشى فى الحجرة كأنه يعد الخطوات التى يقطعها الرجل الآخر ، وهو يستعيد فى ذهنه مراحل الخطة وكيف سيختبىء وراء الباب فى البهو ، حتى اذا طرق روبو الباب خفت سيفيرين عارية القدمين تهبط السلم فى الظلام لتفتح له الباب وتدخله مرحبة بوصوله . وقبل أن يرد على ترحيبها يكون قد سقط على الأرض صريعا والمدية فى رقبته !

اما هى فرقدت ساكنة الأوصال ، والأغطية تحجبها حتى ذقنها . ولم يكن يقلقها ما هى مقدمة عليه لأنها امرأة عاشقة ليس فى كيانها فضلة بعد ذلك العشق لعاطفة أو رحمة أو ضمير او عقل ! . ولكنها لمحت على وجهها صورة الصراع الذى يدور فى أعماقه ، والمجهود الذى يبذله لتشديد عزيمته ، فلما التفت نحوها وهو قادم من جهة النافذة رآها قد نهضت واقفة الى جوار الفراش تقول له :

ـ لنأخذ المصباح الى الطابق الأرضى كى تدرس المواقع على الطبيعة . فتقف وراء الباب وتتصور بالضبط ما سيحدث !

ـ كلا بحق السماء ! . لا تأخذى المصباح ولا توقديه !
ـ دقيقة واحدة ، ثم نطفئه بعد ذلك !

ثم اقدمت غير عابئة باعتراضه ، فطوقته بذراعيها لتقنعه وقد دفعت ظهره الى المائدة بعد أن أشعلت المصباح . فبدت والضوء يسطع عليها مباشرة كما لم يرها من قبل ، كانت قد رفعت شعرها الى على ، ولمع عنقها وصدرها في الضوء ، فثار الدم فى عروقه ، وأنذرته رعدة يعرفها بأن شيطانه بدأ يثور !

وكان يعلم أن المدية مفتوحة على المائدة من وراء ظهره ، فليس عليه الا أن يمد يده فيتناولها ، فبذل جهدا جبارا ليمسك يديه عن الحركة ، وغمغم راجيا منها أن تعود الى الفراش ، ولكنها حسبت رجفة هياما بها ، فطاب لها هذا وازدادت التصاقا به قائلة :

ـ قبلنى يا حبيبى ! . قبلنى بأعنف ما تستطيع . فان ذلك سيقوى اعصابك . قبلنى من كل قلبك !

ولهثت أنفاسه ، واخذت أصوات المطارق والأجراس تتجاوب فى دماغه فلا يسمعها ، والسنة اللهب فيما بين أذنيه تحرق رأسه وتسرى مع الدم فى أطرافه كلها ، فاذا تلك الأطراف اداة لا ارادة لها فى يد ذلك الشيطان .

وكانت الحرارة المعطرة التى تنبعث من جلدها تدير رأسه وتفقده رشده ، ثم قالت له : « قبلنى يا حبيبى ! . قبلنى قبل أن يفوت الأوان . انه لا يلبث أن يأتى كما تعلم ما بين لحظة واخرى . وما دمت لا تريد أن تقوم بتجربة عملية فتذكر هذا جيدا من امرأة جربت الأمر قبلك : يجب أن تطعنه بمجرد أن أفتح الباب . وأن تجعلها قاضية . فتذكر اننى احبك . واننا سنسعد معا كما لم يسعد بشر . وانه عذبنى عذابا لم تتعذبه امرأة . وانه العقبة الوحيدة فى طريقنا .. قبلنى . قبلنى كأنك تهم أن تلتهمنى فلا يبقى منى بعد ذلك شىء أبدا ! » .

ومن غير أن يلتفت ، امتدت يداه وراء ظهره يتلمس المدية . واحتفظ بها فى قبضته لحظة .

ـ قبلنى يا حبيبى . قبلنى !

ورفع المدية فى يده فلمحت بريق النصل وصاحت :

ـ جاك ! جاك !

وتراجعت فكشر عن أنيابه وطاردها . وبعد معركة سريعة أعادها الى الفراش وقد مزق قميص نومهـــا فأصبحت عارية تماما وهى تصيح به : لماذا ؟ لماذا ؟

ونزل بكل قوته فأوقفت السكين تيار الأسئلة فى حلقها ، وجذب النصل فى داخل رقبتها الى اليمين بمثل الطعنة التى قتل بها القاضى جرانموران !

ولم يدر هل صرخت أم لا .. لأن قطارا مر فى تلك اللحظة فطغى هديره على كل صوت ، ولذلك أيضا لم يسمع حشرجتها !

ووقف ساكنا ينظر اليها صريعة عند قدميه . وقد تجاوب لون الدم المنبثق منها مع البساط الأحمر والستائر الحمراء !

يالله ! . انه ما كان يظن أن الجسم البشرى يحتوى على كل هذا القدر من الدم ! . ثم سمع نفسه يتنفس فى زفير أشبه بزئير الأسد ، أو خوار خنزير برى ! انها صرخة الاكتفـــاء التام يطلقها شيطانه الوحشى بعد أن استكمل شهوته المنشودة ! . فهو اذ قتل هذه المرأة قد امتلكها أخيرا أكمل امتلاك ، لأنها لن تكون بعد ذلك لأحد سواه ! . وها هو أخيرا قد حقق ما كان يتحرق شوقا اليه كلما احتواها بين ذراعيه أو تجاوب جسدها مع جسده فى حمى الغرام !

وأفاق الى نفسه ، وأدرك ان الرجل الآخر لابد ان يأتى ... ونام الشيطان الذى فى داخله بعد أن اكتفى واشتفى ، فثاب اليه عقله ، وأدرك أى جرم اقترفه ، فانتـــابه الذهول ، بل انتابه الجنون !

وأسرع يهبط السلالم فى الظلام ، ثم فتح الباب وأخذ يعدو فى اتجاه الخط الحديدى !

وفى تلك الليلة أيضا كان كابوش رابضا تحت نافذة سيفرين . وكان يعلم انها وحدها تنتظر حضور زوجهـــا . لهذا دهش دهشة هائلة حين رأى شبح رجل يخرج من البيت وهو يجرى كالشيطان . ولم يهدأ باله فقرر ان يتحقق من جلية المسألة . وكان الهارب قد ترك الباب مفتوحا فدخل يتحسس طريقه فى الظـــلام الى حجرة النوم الكبرى . حيث بدت له الفاجعة !

وبدا له لأول وهلة أن بها بقية من حياة ، فرفعها بين يديه بـكل رفق ، ووسدها فراشها ، وجذب الأغطية فوقها . وبذلك تلوثت

يداه الكبيرتان بدمها . وفى هذه اللحظة بالذات دخل روبو الحجرة وفى اعقابه مينار !

وكان الذى عاق روبو بعض الوقت انه التقى فى طريقه بمينار فوقفا يتحدثان فى شأن ذلك الرجل الراغب فى شراء البيت .

ولما وجد الباب الخارجي مفتوحا ترددا لحظة ثم دخلاوهمايتوجسان .. واذا بهما يجدان أمام عينهما هذا العمـــلاق كابوش ويداه تقطران دما !

وبعد أن ألقى مينار نظرة على جسم سيفيرين قال :

ـ ماتت ! . بطعنة كتلك التى مات بها القاضى !

فهز روبو رأسه ولم يتكلم ! . ولكنه لم يستطع أن يحول عينيه عن نظرة الفزع التى ارتسمت فى عينى سيفيرين وتعبير الدهشـة والارتياع الذى تجلى فوق محياها !

***

وجد السيد دنييزيه قاضى التحقيق فى هذه القضية حلقـة أخرى من حلقات قضية مصرع القاضى جرانموران . ووجد فى قرائن الشبهة اللاصقة بالعملاق كابوش ، وفى تشابه الطعنتين ، ما يؤيد نظريته الأولى فى اتهامه اياه بقتل القاضى ، ذلك الاتهام الذى لم تتوفر له الأدلة حينذاك !

ولما حاول المسكين أن يروى ما حدث على علاته ، انفجر قاضى التحقيق يضحك من سذاجة أكاذيبه العرجاء !

وقام القاضى باجراءات التفتيش المعتادة ، فعثر فى كوخ كابوش وسط الغابة على مناديل وقفازات تخص سيفيرين ، وعلى قطع أيضا من ملابسها الداخلية . وأكثر من هذا على ســاعة تحمل اسم القاضى جرانموران . وكان المسكين على عادته فى سرقة قطع ثياب محبوبته قد سرق منديلا دسه فى جيبه . فلما وصل الى الكوخ وجد ساعة القاضي ملفوفة فيه . فتحير كيف يرد الساعة دون أن تدرى . وقبل أن يدبر خطة لذلك وقعت الواقعة . فكان ضبط الساعة عنده الدليل الدامغ على أنه هو قاتل القاضى كما أنه قاتل هذه المرأة !

ولما سأله القاضى عن حبه لها احمر وجهه كالعذارى ، وانكر أول الأمر ، ثم اعترف بأنه أحبها حبا عذريا بلا أمل ولا طمع ، فقهقه

القاضي مرة اخرى ساخرا . ولولا الحراس لفتك به كابوش انتقاما لشرف محبوبته !

وخطر للقاضي خاطر آخر هو أن كابوش قتلها بتحريض صاحب المصلحة في قتل القاضي . وصاحب المصلحة هنا هو روبو الذي دلت التحريات على تفكك عرى الزوجية بينه وبين سيفيرين بعد مقتل القاضي . وأن حبهما تقلب من النقيض الى النقيض . وانه ادمن المقامرة وغرق في الدين . فلابد أنه هو الذي حرض كابوش بالمال ليحصل على الميراث . وأن سيفيرين علمت عليه ذلك فكرهته . ثم اتخذت عشيقا . فلما ثقل على روبو دين القمار ، ووجد زوجته ترفض أن تماطل في بيع البيت ، عمد الى كابوش فاغراه مرة اخرى بقتل زوجته كي يرث البيت كله ويتخلص منها .

وقبض القاضي على روبو ليستجوبه . فخانته أعصابه ، وتخبط في أقواله وهو ينفي عن نفسه تهمة التحريض على قتل سيفيرين فاذا به يتورط في اعتراف بقتل القاضي .

واخذ باعترافه ، ولكن فيما يختص بقتل القاضي . اما كابوش فلم يعرف كيف يبدد القرائن التي تجمع على أنه قاتل سيفيرين .

اما عشيقها وقاتلها جاك فكيف يتهمه الناس ؟ . ولمــــاذا كان يقتلها ؟ . ثم انه لفرط اللوعة والندم القى بنفسه من القاطرة وهي تسير بأقصى سرعتها ، فشمله الناس بالعطف لأنهم عدوه من شهداء الغرام لا من شهداء الاجرام !

وبعد شهر حفلت محكمة « روان » بجمع غفير جاءوا يشهدون عدالة الانسان حين تطبق القصاص وتدمغ بالادانة .

وخلا المحلفون الى ضمائرهم يتناجون ساعة ، ثم طلعوا على الناس بقرار يقضي بادانة « روبو » و « كابوش » .. ويحكم عليهما بالاشغال الشاقة المؤبدة !

ومن عجب أن الناس رثوا للقاتل الحقيقي روبو لانه قال : « قتلت غيرة على عرض ! » . اما البرىء كابوش فأخذ النـــــاس يصفرون استهجانا لخفة العقوبة عليه . فقد تمثل هذا العمـــلاق في نظرهم وحشا لا يستحق عقوبة أخف من عقوبة الاعدام !

وهكذا تتباين عدالة الانسان وعدالة الرحمن !

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٣٨٤٨/٨٠
الترقيم الدولى : ٦-٧٢ - ٧٠٣١ - ٩٧٧ ISBN



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر إبريل 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

هذه الرواية

تعد هذه الرواية من عيون مؤلفات الاديب الاشهر اميل زولا ، بل تعد من عيون الادب الفرنسى ، وادب الروايات بنوع خاص ٠ ولا نكون مغالين اذا قلنا انها من عيون الادب العالمى الذى يتناول الانسان وما له من غرائز وعواطف فى كل مكان وزمان ٠ فقد صور فيها زولا هذه الغرائز والعواطف حين تستبد بالانسان ويغفل فيها عن نفسه فيرتد وحشا آدميا ، وعاشقا شاذا ، مصابا بداء نفسى يجعله مجنونا او كالمجنون ٠

ففى جو من الانفعالات العنيفة ، والغرائز الادمية المتصارعة نجد زوجة شابة وزوجا شابا من أوساط الناس ، وشيخا كهلا له وجاهته ومركزه ، وله اطماعه وشهواته وأنانيته وجشعه ونجد شابا مصابا بهذا الداء النفسى الذى يحبب اليه قتل النفوس ويستعذب رؤية الدماء مراقة امامه كالماء المنهمر ـ نجد هؤلاء جميعا ما بين غرائزالطمع والشهوة والغيرة وعواطف الحب والغضب والحقد والكراهية ، وقد اندفع كل منهم فى هذا التيار البشرى المتلاطم الذى يحطم بقوته اغلال العقل وقيود الاخلاق ٠

وقد ابدع زولا فى تصوير ابطال هذه الرواية وحوادثها بحيث نشعر بأنهم امامنا فيمن نعرف من امثالهم ، بل فيمن نعرف من انفسنا لو اننا تركنا العنان لما فينا من ميول وعواطف ولما فى اعماقنا من شهوات وغرائز ٠